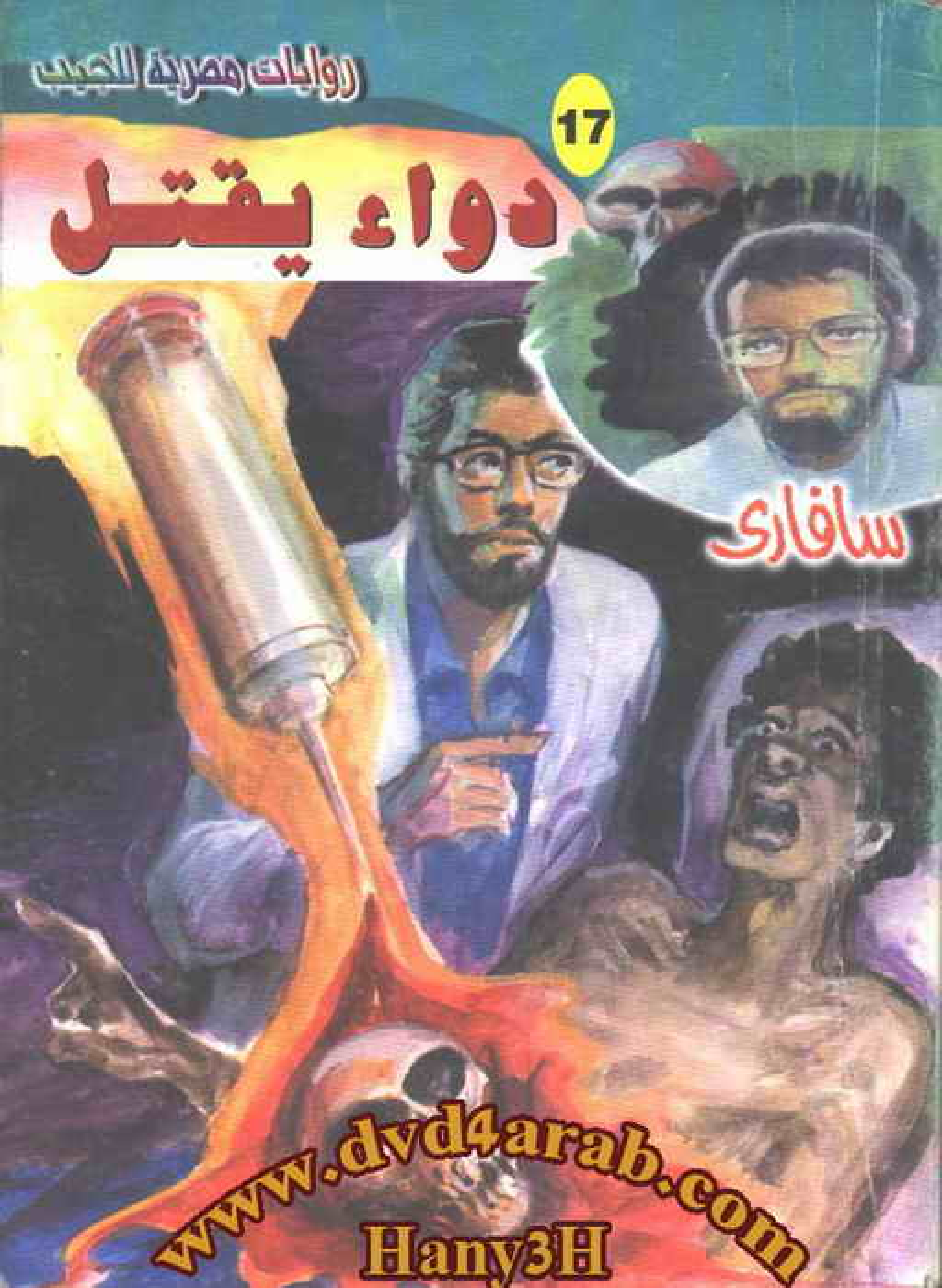

روايات مصرية للجيب
17
دواء يقتل
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقـــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمـة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحـلات صـيد الوحـوش فى أدغـال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سـافارى) التـى سنقابلها ها هنا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابـات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الـذى سنقابله دومـًـا ، ونألفـه ، ونتعلـم أن نحبه هـو د. (عـلاء عبد العظيم) .. شـاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيدًا وسط أدغـال (الكـاميرون) ، وفـى بيئـة غريبـة وأمـراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (عــلاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضـارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير مـن الفيروسـات القاتلـة .. والسـحرة المجـانين .. وأكلـة لحـوم البشـر .. والمرتزقـة الذيـن لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشـرية .. والعلمـاء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظـل حيًّا .. وكـى يستطيع فـى الوقت ذاتـه أن يظـل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجـوب (السـافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ - لأن الكسب هو المهم ..

قال البروفسور (مورجان) مستشار منظمة الصحة العالمية :

- « إن القانون الوحيد الذى يحكم رأس المال هو الكسب .. والقيمة الوحيدة للأمور هى مقدار ما تجلبه من دولارات .. من العسير علىّ أن أقول هذا ، وأنا آت من بلد رأسمالى ، لكن يظل للقيم الإنسانية صوت عال يجب أن يملك حرية الكلام والتعبير ، وإلا اختلت موازين الأمور .. »

كنا جالسين فى قاعة المحاضرات (التيوتور) نصغى باهتمام لما يقول ، وخاصة حين أشار إلى مساعده كى يبدأ تشغيل جهاز عرض الشرائح على الحائط...

كانت الصورة الأولى شنيعة ؛ تمثل طفلاً بلا ذراعين ولا قدمين .. وسمعت من فى القاعة يتهامسون (ثاليدومايد .. ثاليدومايد) ، فقال (مورجان) :

- « هو كما قلتم .. إنه طفل (الثاليدومايد) كما عرفه الطب .. كان (الثاليدومايد) كما تعرفون مهدئًا خاصًا بالحوامل ، باعته الشركة فى الستينات ، وزعمت أنه بلا خطر من أى نوع ، والحقيقة يا سادة هى أن الشركة لم تكن تعرف ما الذى تتكلم عنه ، وسرعان ما ولد فى أوروبا وأمريكا جيل من الأطفال بلا أذرع ولا أقدام .. لقد اتضحت الحقيقة بعد فوات الأوان ، ورفعت مئات القضايا على الشركة التى أشهرت إفلاسها ..

« لكن الحقيقة يا سادة أن هذه الصورة لم تلتقط فى الستينات ، بل هى حديثة تم التقاطها فى (شيلى) العام الماضى .. إن (الثاليدومايد) قد خرج من المخازن ، ويباع لدول العالم الثالث مع دعاية تقول : المهدئ الأكثر أمانًا بالنسبة للحوامل ! وهذا نموذج لما كنت أقوله عن شهوة الكسب ![*] »

وعلى الشاشة ظهرت صورة أخرى ..

(*) حقيقة ..

هذه المرة كانت صورة لامرأة تحتضر .. كيف عرفنا أنها تحتضر ؟ لا يجب أن يكون المرء طبيبًا ليعرف أشياء كهذه ..

كان شحوبها مريعًا ، وفى عينيها نظرة ذعر مرعبة بدورها ..

بينما عاد البروفسور الأمريكى يتكلَم :

ـ « (الدايبايرون) عقار كف العالم عن استعماله من زمن ، بسبب ما يحدثه من تدمير فى خلايا الدم مما يؤدى لأنيميا شلل النخاع .. لكنه يباع اليوم على نطاق واسع فى دول العالم الثالث ، وقد عدنا نرى أعراضه الجانبية بوضوح تام .. هذه المرأة ماتت بعد التقاط هذه الصورة بثلاث ساعات .. »

ونظر لنا مليًا ، وأردف :

ـ « كنا نشكو من انعدام دراسات الإتاحة الدوائية فى العالم الثالث .. الفقراء يشترون الدواء ، لكن لا أحد يعرف إن كانت له أهمية أم لا .. لقد درسنا الإتاحة الدوائية لعقار (باراسيتامول) فى بعض

الدول الإفريقية ، فوجدنا أن أثر الدواء معدوم ، وأن المريض كان ليفيد أكثر لو اشترى بثمن الدواء خبزًا لأطفاله .. والسبب هو انعدام الضمير وشهوة الكسب غير المشروع ..

« قبلنا هذا الوضع على مضض .. لكننا اليوم نجد نوعًا جديدًا من الدواء .. لقد انتهى العصر السعيد للأدوية غير المفيدة ، ليبدأ عصر الأدوية القاتلة .. ! »

ثم رفع ذراعه نحو السقف وهتف :

ـ « الحقيقة يا سادة هى أن الفقراء فى عالمنا هذا هم مصدر الثراء الأساسى للأغنياء .. إنهم يدفعون أكثر ويعانون أكثر ويموتون بلا ضوضاء .. من أجل مزيد من المليارات تضاف لحساب الشركات العملاقة فى (سويسرا) .. »

كان قد بلغ ذروة الانفعال ، فوقف يجفف عرقه ويلهث ..

وساد صمت هنيهة ثم التهبت الأكف بالتصفيق ..

وتدحرج مديرنا الهمام (بارتلييه) إلى المنصة ، ليقول :

- « نحن نشكر البروفسور (مورجان) على محاضرته الشائقة .. والحق أنه رجل من طراز نادر .. رجل من الذين خلقوا ليشعلوا الثورات ! »

وصاح (شيلبى) من بين الجالسين مازحًا :

- « إنه ينسى أن هناك أمريكيين هنا ! »

بجدية دنا (مورجان) من مكبر الصوت ، وقال :

- « أنا لم أهاجم أمريكا .. إنها وطنى .. لكنى أهاجم أسوأ ما فى الرأسمالية .. وهى النقاط التى تلوث دور أمريكا الذى أريده لها كقائدة للعالم الحرّ .. وعلى كل حال لقد كان أقوى ما تميز به النظام الرأسمالى فى أمريكا ؛ هو قدرته الخارقة على النقد الذاتى وجلد النفس .. هكذا يصحح مساره كلما شط به .. »

ومن جديد عاد التصفيق والصفير ..

* * *

نظرت إلى ساعتى وتثاءبت ..

لقد استغرقت المحاضرة ساعة ونصف الساعة ، ولم تقل جديدًا سوى : هناك أشخاص قذرون للغاية فى هذا العالم ، وهى معلومة لم تكن بحاجة إلى ساعة ونصف ، بينما على كاهلى طن من الأعمال المتراكمة فى مختبر وحدة (سافارى) ..

وكان (بيير) الطبيب الفرنسى يجلس جوارى ، فقال متفكهًا :

- « هذا الأمريكى .. يبدو أنه شيوعى بعنف ! »

ابتسمت فى كياسة ، وقلت :

- « إنه ثائر .. وكل الثائرين يعطون الانطباع بذلك لأول وهلة .. »

ونظرت إلى (برنادت) التى احمرّت عيناها ، وسال أنفها .. إنها - كالعادة - لا تطيق أن ترى مكروهًا يصيب طفلاً .. وقد كانت جرعة الصور أكثر من تحملها ..

قالت لى فى اشمئزاز :

ـ « هل رأيت ؟ هذا شنيع ! »

ـ « نعم هو شنيع .. لكن ليس من سلطتى أن أنهيه .. سيستمر كل شىء ، إلى أن تتخذ منظمة الصحة العالمية خطوة ما .. »

وكانوا قد بدءوا يتفرقون ، فنهضت ..

جريت إلى المعمل جريًا قبل أن تصل (هيلجا) هناك ، لعلها لو رأتنى منهمكا بالعمل ، صفحت عنى ولم تلتهم حنجرتى ..

* * *

كنت فى هذه الآونة قلقًا للغاية ، وعلى غير استعداد لتحمل خطايا الكون والرأسمالية العالمية ..

أمى ـ الحاجّة الطيبة التى تفوح منها رائحة (الحبهان) واللبان (الدكر) ـ مريضة .. صحيح أن أمى مريضة أبدًا ، لكن من الواضح أن الأمور تسوء هناك فى مصر ، وثمة كلام مخيف عن وظائف الكلى وزلال البول ، وهى أشياء أعرف أكثر من غيرى معناها حين نتحدث عن مريضة سكر ..

ولقد طلبت من (بارتلييه) أن يعطينى إجازة ، حتى لو كانت أسبوعًا .. لكنه رفض لأن أكثر المقيمين غير موجودين الآن : (بسام) فى كينيا يفعل شيئًا ما ، و (آرثر) فى وطنه ، و (حشمت) فى (إسلام أباد) .. و ..

ربما يعطينى إجازة حين يعود أولهم .. وهكذا رحت أدور حول نفسى ، منحرف المزاج لا أملك إلا الاتصال الهاتفى والخطابات التى تتأخر قرونًا ..

لو أن شيئًا حدث لأمى وابنها طبيب ، فإن الجلد بالسياط لن يكفى لإراحة ضميرى .. والغريب أننى أدعو اللّه (تعالى) ألا يقبض روحها ـ وهو شىء لا بد أن يحدث يومًا ـ إلا فى إجازتى .. يمكننى وقتها أن أريح رأسها الأشيب عطر الرائحة على صدرى ، وأنتظر زيارة الموت ليقف عند رأس الفراش .. و ..

تبًا ! يا لها من خواطر كئيبة .. !

فلأغرق قلقى فى آبار جهاز (إليزا) التى تهبط من على ، لتقيس الهرمونات فى دماء عشرات

المرضى فى الوقت ذاته .. ولأتسلى بمشاهدة السبوروزويتات الخاصة بالملاريا ، وهى تمرح بين خلية حمراء وأخرى(*) .. وأعدّ الخلايا اللمفاوية فى السائل النخاعى الشوكى ..

ولأنتظر ..

إن غدًا يوم آخر .. ربما فيه ينبت لى جناحان ، وأحلق بعيدًا بعيدًا .. دون تأشيرة ولا جواز سفر ولا تذكرة طائرة .. أحلق شرقًا وشمالاً نحو مصر .. هذا سهل .. لن أضلّ طريقى أبدًا ، لأن من ينظر من عل لا يضل طريقه ..

غدًا يوم آخر ..

* * *

(*) يعنى (علاء) الميروزويتات ، لكنه يفتقر إلى الدقة أحيانًا ..

٢ ـ الشركة ..

فى هذا الوقت فى مكتب (بارتلييه) :

كانت المائدة الطويلة ـ التى قلما يستعملها الرجل ـ قد وضعت فى منتصف الغرفة الضيقة ، وقامت السكرتيرة بتنسيق المقاعد حولها بما يوحى باجتماع عظيم الأهمية .. ستة مقاعد ، وأمام كل مقعد على المائدة ملف محشو بالأوراق وزجاجة مياه معدنية ، وقلمًا يمكننا به أن نرسم صناديق ومشانق وزهورًا وبطًا .. وكل ما يجعلنا نبدو منهمكين ..

كان الضيوف على قدر عال من الأهمية ، وهم جميعًا أعضاء المكتب العلمى لشركة (كوزمو فارما) السويسرية(*) ، وهى من أضخم شركات الدواء فى العالم الآن . إنها الشركات العملاقة التى يطلقون

(*) اسم الشركة وهمى ، ولست مسئولاً إن كنت نحسًا وكانت شركة حقيقية تحمل هذا الاسم !

عليها اسم (كومبرادور) ، وتفوق ميزانيتها ميزانية عدة دول .. وبالطبع يكون لها طابع خاص عابر للقارات .. فـ (كوزمو فارما) موجودة فى كل مكان وتحت كل حجر ، لكن مقرها الرئيسى فى (سويسرا) حيث توجد أهم شركات الدواء العالمية .. إن أهم البنوك وأهم شركات الأدوية موجودة هناك فى هذا البلد المجدود ..

الرجل الأشيب الوقور نافذ الكلمة هو (هنريك ستيجوود) مدير المكتب العلمى ، أما الأخوة المتأنقون من حوله فهم مهمون جدًا ، ولكنهم أقل شأنًا منه ، ولا داعى لذكر أسمائهم الآن ؛ لأن كل الأسماء السويسرية تتشابه على كل حال ..

لغة الحوار : الفرنسية ، وهناك ثلاثة يكتبون كل حرف يُقال ، وهناك عشرات من الأوراق التى تنتظر التوقيع ..

الهدف من الاجتماع بدء الخطوات الأولى لتجربة عقار RW 7654 ، وهو عقار تجريبى أنتجته الشركة لمقاومة الملاريا ..

ستتمّ للمرة الأولى تجربة العقار على البشر ، وهى الخطوة التالية من طريق مجهد شاق يمرّ به أى دواء جديد .. لابد من تجربته على الحيوانات فترة كافية ، ومعرفة كل شىء عن حركياته وأعراضه الجانبية وجرعاته ، بعدها يبدأ تجربته على البشر .. ولهذه الدراسات أسلوب معقد ، وهناك خبراء مهمتهم فى الحياة تصميم هذه التجارب المتحذلقة .. لكن يمكن باختصار أن نقول إنهم يسمونها (تجارب الطور الثانى) .

من المعروف أن بعض الأمراض قد تشفى من تلقاء نفسها ، وبعضها قد يُشفى بفعل الأسماء ، لذا لابد فى كل دراسة مماثلة أن يتم تقسيم المرضى إلى مجموعتين .. مجموعة تتعاطى الدواء الوهمى ، ومجموعة تتعاطى الدواء الحقيقى .

بعد انتهاء التجربة ، يجب ـ إذا كان للعقار قيمة ما ـ أن نجد اختلافًا إحصائيًا ملحوظًا بين المجموعتين ..

الدواء الوهمى يسمونه (بلاسيبو Placebo) وهى لفظة لاتينية معناها (سوف أسعد) والتعامل معه يقسم هذه التجارب إلى نوعين واضحين :

١ ـ الطبيب يعرف ما الذى يعطيه للمريض .. أى أنه يعرف ما إذا كانت الكبسولة تحوى الدواء أم هى وهمية خادعة .. بينما المريض يجهل كنه هذا الذى يبتلعه .. وهذا القسم من التجارب يسمى (أحادى التعمية) .. أى أن أحد الطرفين أعمى ..

٢ ـ الطبيب والمريض يجهلان ماذا يتناوله المريض .. لا أحد يعرف محتوى الكبسولة ، ولا سبيل لمعرفة الحقيقة إلا بالرجوع إلى مفاتيح رقمية ليست فى حوزة أحدهما ، وإنما يعرفها مصمم التجربة فقط .. الغرض من هذا الأسلوب هو أن يجهل الطبيب تمامًا ما يتعامل معه .. بالتالى لا تتسبب حماسته للدواء فى الإيحاء للمريض بنتائج مخادعة .. ويسمون هذا الأسلوب باسم (ثنائى التعمية) .. أى أن كلا الطرفين أعمى ..

(لأسباب واضحة يرفض أطباء العيون لفظة التعمية ، ويسمون التجربة باسم التجربة ثنائية الإخفاء !)

هذا هو الأسلوب المحتوم فى أية دراسة دوائية ..

أحيانًا تحدث استثناءات .. فلو اتضح للطبيب أن المرضى الذين يتعاطون الدواء يتحسنون بشكل مذهل ؛ يكون من القسوة وانعدام الإنسانية أن يحرم المرضى الذين يتعاطون (البلاسيبو) من فرصة مماثلة .. خاصة لو كان مرضهم خطيرًا ، عندها يسمح العلم بإنهاء الدراسة ، وإعطاء الدواء للمجموعتين دون إبطاء ..

بالتأكيد هناك حدود للفضول العلمى مهما كبر !

هل استطردت أكثر من اللازم ؟ سامحونى على ذلك ، لكن ما أقوله ذو أهمية كبرى بالنسبة لقصتنا هذه .. ثم إن القصة التالية توضح بجلاء ما قلته من قبل ..

كانت الدفتريا وباءً كاسحًا وبيلاً يبيد الأطفال بلا رحمة ، حتى توصل العالم العظيم (بهرنج) إلى الترياق المضاد لسمّها ..

كان متحمسًا لقياس مفعول هذا الترياق بشكل علمى ، واختار مجموعتين من الأطفال الذين يموتون

مختنقين فى المستشفيات .. المجموعة الأولى حقنها بالمصل المضاد للسمّ ، والمجموعة الثانية تركها لمصيرها ..

كانت النتيجة رائعة .. لقد عاد أكثر أطفال المجموعة الأولى إلى الحياة ، وجرى الدم فى عروقهم وانتظم تنفسهم .. مات بعضهم بالطبع ، لكن هذا كان نجاحًا فى حد ذاته ، لأن الدفتريا لا تترك ناجين وراءها .. هنا وجد ضميره معذبًا ممزقًا .. الأمهات يبكين ويتوسلن إليه أن ينقذ أطفالهن البؤساء ، وهو مصمم على الاستمرار فى تجربته بصرامة العلم وقسوته الباردة ..

فى النهاية انتصرت الإنسانية ، ولم يتحمل أكثر .. قام بحقن أفراد المجموعة الثانية بمصله السحرى ، وبالفعل نجا أكثرهم من الموت ..

لكن (روبرت كوخ) العظيم .. (كوخ) الرهيب المهيب .. (كوخ) سيد علماء الميكروبات فى ألمانيا والعالم ، لم يرق له ما قام به تلميذه ..

قال له :

ـ « من أدراك أن من نجوا من الموت ، ما كانوا لينجوا إلا بفضل مصلك ؟ إن وباء (الدفتريا) يضعف أحيانًا ، وأحيانًا ينجو منه الطفل بلا سبب .. »

فلابد أن (بهرنج) المرتجف قال :

ـ « يا هر (كوخ) .. لم أحتمل أن يموت هؤلاء الأطفال مع احتمال أن المصل جيد .. »

فيشعل (كوخ) العظيم غليونه ، ويقول :

ـ « بالعكس .. أنت جنيت على ملايين الأطفال الذين سيصابون بالدفتريا بعد هذا .. فالعالم كله يعتقد أنه آمن ، وأن (الدفتريا) وباء تم استئناسه .. أما لو عرفنا أن مصلك عديم النفع ، لجعل هذا الناس يواصلون البحث عن مصل فعّال .. كان يجب أن تنتظر لترى كم طفلاً سيموت فى المجموعة الثانية .. لربما كان هو نفس العدد لمن ماتوا فى المجموعة التى حُقنت بمصلك ، وكان هذا سيجعلنا نتأكد من فشله ! »

والحقيقة هى أن أحدًا لم يجرؤ منذ ذلك الزمن السحيق على إعادة التجربة ! ، وما زال الأطباء يعطون مرضى الدفتريا المصل ذاته ، دون أن يجسروا على التشكيك فى قيمته .. ! ويبدو أن أحدًا لن يجرب هذه المحاولة أبدًا ..

وهذا نموذج للمرات التى تضطر فيها الاعتبارات النفسية العالم إلى التخلى عن صرامة منهجه العلمى ..

* * *

نعود لقصتنا ..

الاجتماع منعقد ، والابتسامات يتم تبادلها ، وكل دعابة بسيطة تبدو لهم نكتة عظيمة تدفع المرء إلى القهقهة .. إنه ذلك الجو الرسمى المفتعل ، الذى يضوع برائحة المجاملات والبروتوكولات ..

ـ يسأل (ستيجوود) رئيس وحدة (سافارى) :

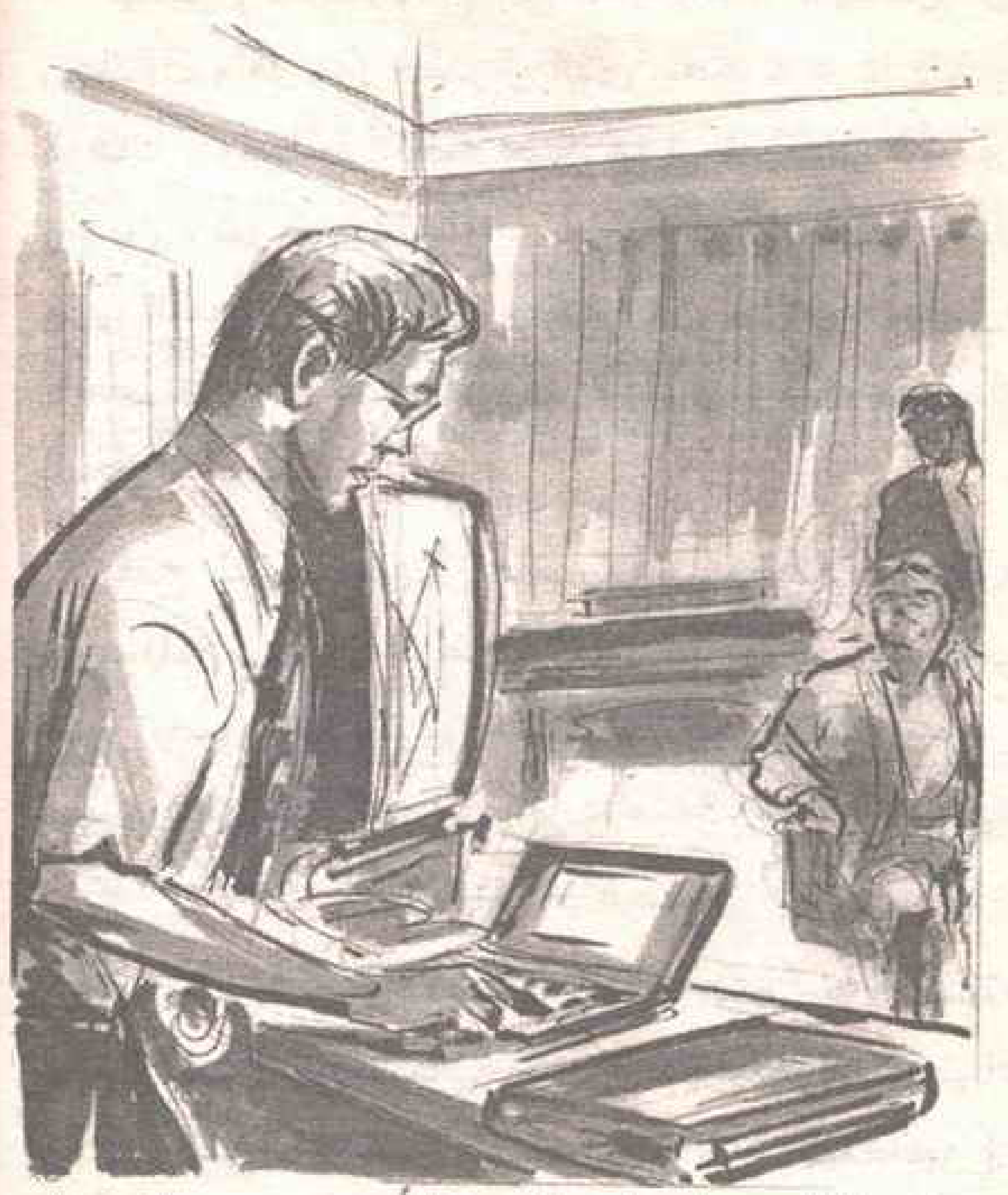
ـ « هل قمت بتشكيل الفريق الطبى الذى سيشرف على التجربة ؟ »

ـ « ليس بعد .. لكنْ لدىّ عدد من الأطباء الأكفاء هنا .. »

فيشير (ستيجوود) إلى شاب وسيم متحمس من رجاله ، وهو من الطراز الذى يتصبب عرقًا طيلة الوقت ، ويلبس ربطة عنق فوق قميص قصير الكمين ، ليوحى بالنجاح .. ولزيادة هذا التأثير يملأ جيب القميص بالأقلام ، وتتدلى من حزامه أجهزة لاحصر لها ، بدءًا بالهاتف الخلوى وانتهاءً بعدّاد الخطوات ...

يفتح الشاب جهاز حاسب آلى متنقلاً ، ويقوم بتوصيله بجهاز عرض ، ثم يبدأ عرضٌ تقديمى مبهر يصوّر البروتوكول المقترح لإجراء الدراسة .. مستطيلات ملونة جميلة تخرج منها وتدخلها أسهم ، وأعمدة بيانية .. الخ ..

من الواضح أن دراسة العقار RW 7654 ستتم بأسلوب (ثنائى التعمية) ، حيث لن يعرف الأطباء ولا المرضى ما إذا كانوا يتعاطون الدواء أم (البلاسيبو) ، وبالطبع لن يعرف الجواب الصحيح إلا مصمم الدراسة وخبيرها الإحصائى ..



يفتح الشاب جهاز حاسب آلى متنقلاً ، ويقوم بتوصيله بجهاز عرض ، ثم يبدأ عرض تقديمى مبهر يصورّ البروتوكول المقترح لإجراء الدراسة ..

سألهم (بارتلييه) :

ـ « بالطبع لم تحصلوا بعد على موافقة إدارة الطعام والدواء FDA ؟ »

قال (ستيجوود) ضاحكًا فى تكلف :

ـ « هذه مرحلة تالية حتمية .. لكن لا بد من إجراء الدراسة أولاً .. »

ثم قال بلهجة ذات معنى :

ـ « بالطبع بمجرد انتهاء الدراسة ، سيوضع الشيك المتفق عليه فى حساب وحدة (سافارى) ، فى أى مصرف سويسرى تحددونه بالاسم .. »

انتفخت أوداج (بارتلييه) .. هو لم يكن مولعًا بالمال ، لكن وحدة (سافارى) فى حاجة ماسة إليه ، خاصة وهى تعيش على التبرعات والتمويل من خارجها .. إن الصحة فى كل أرجاء العالم مشروع خاسر على المدى القريب ، ولا يجلب أبدًا عُشر تكاليفه ، لكنه مجز على المدى البعيد ، إذا فكرت فى جموع الأصحاء الذين سيعمّرون الأرض ، ويمارسون كافة النشاطات البشرية ..

وكانت (سافارى) تمرّ فى هذه الفترة بواحدة من أسوأ أزماتها المالية ..

ثم يجىء الأخ (ستيجوود) ملوحًا بشيك عليه أصفار كثيرة .. كثيرة جدًا .. هنا شىء لا يمكن رفضه .. أو التردد فيه ..

ودون تفكير أطول تناول القلم ، وسأل سكرتيرته الحسناء :

ـ « أين أوقع ؟ »

أشارت بإصبع سبابتها المصبوغ إلى بقعة على الورقة ، فمدّ يده ومهرها بتوقيعه .. وسرعان ما حذا السويسرى حذوه ، وتبادلا الورقتين ..

وتعالى صوت التصفيق .. بينما راح الشاب المتحمس يصبّ بعض الكئوس ليشرب الجميع نخب (القضاء على الملاريا) ..

ومع الزبد الأبيض والضحكات ، كان العقار RW 7654 يتأهب ليكشر عن أنيابه ...

* * *

٣ ـ دعونا نبدأ الآن ..

ـ « الدكتور (علاء عبد العظيم) .. مطلوب حالاً فى مكتب المدير .. »

« الدكتور (علاء عبد العظيم) .. مطلوب حالاً فى مكتب المدير .. »

ـ « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم ! »

هذا يوم لم تطلع له شمس بالتأكيد .. صحوت متأخرًا ، وارتديت قميصى بعصبية فمزقت زرّين منه لا أدرى كيف .. ثم أغلقت الباب وخرجت ، بينما المفتاح فى الداخل .. فما إن سرت بضع خطوات حتى سمعت هذا النداء ..

لماذا يريدنى مبكرًا وعلى غير عادته ؟ بالطبع ليلومنى على عدم تواجدى فى المعمل أمس .. لابد أن (هيلجا) الشمطاء لم تنم ليلتها قبل أن تدقّ (الإسفين) المتين لى .. كنت فى محاضرة

البروفسور (مورجان) يا سيدى .. أنتم قلتم إن على جميع أفراد الوحدة حضورها .. لم نطلب منك هذا شخصيًا ، وكان عليك أن تسألها الإذن .. أين أجدها يا سيدى إذا كانت هى نفسها قد حضرت المحاضرة ؟

بالطبع لا بد من نصف ساعة من لعبة الشطرنج الكلامى هذه ، حتى يتعب فيأمرنى بالانصراف ، ويكلفنى ـ على سبيل العقاب ـ بالعمل فى عنبر الحروق اليوم ..

* * *

وفى مكتبه ، كان جالسًا مع (آرثر شيلبى) الغنى عن التعريف ، و (هيلين ماكيلى) أستاذ الطفيليات .. وكان هناك طبيب هندى شاب أعرفه بشكل سطحى ..

قال (آرثر شيلبى) حين رآنى :

ـ « آه ! ها قد جاء حجر الزاوية ! »

نظرت لهم فى غباء ، ولم أفهم ، لكن (بارتلييه) بادرنى بالسؤال :

ـ « (علاء) .. هل لديك الكثير من حالات الملاريا الآن ؟ »

فكرت فى فخ فى السؤال ، فلم أجدْ .. قلتُ ببراءة :

ـ « إن إفريقيا لا تخلو من الملاريا ، كما لا يخلو قلب الموتور من الحقد ! »

ـ « بصرف النظر عن براعتك فى الشعر ؛ كم حالة لديك حاليًا ؟ »

ـ « حوالى خمسين .. أكثرهم أطفال مصابون بالملاريا المخية ، أو حمى الماء الأسود يا سيدى .. »

ـ « وكلهم تلقى العلاج بالـ (كلوروكين) ؟ »

ـ« كلهم يا سيدى .. بل إن المريض يتعاطاه فى داره قبل أن يأتى لنا .. فقط حين تسوء الأمور يجيئون هنا .. »

تبادل نظرة مع (آرثر شيلبى) ، ثم قال :

- « سيقوم البروفسور (شيلبى) بمناظرة هذه الحالات جميعًا ، لكنى أطلب منك أن تتوقف عن إعطاء أية أدوية ملاريا لهذه الحالات .. لا (كلوروكين) ولا (كينين) ولا (مفلوكين) ولا (فانسيدار) .. لا شىء على الإطلاق .. »

قلت فى حيرة :

- « لست أنا المسئول عن هذه الحالات يا سيدى .. »

- « ستكون كذلك بعد انتهاء هذا اللقاء .. وسيكون عليك تقديم تقرير يومى عن الحالة السريرية للمرضى .. حالتهم .. وعيهم .. كل شىء فى هذا النموذج المطبوع .. كما سيكون عليك تقديم عينات من دمهم كل ست ساعات للدكتورة (ماكنلى) .. يجب أن تحتفظ بمفتاح دقيق للحالات كى لا يحدث خلط ما ..

« أقترح عليك أن تقوم بتقسيمهم إلى مجموعات : ملاريا الأطفال .. ملاريا الكبار .. ملاريا مخية ..

حمى المياه السوداء .. القىء الصفراوى المتقطع .. ملاريا مع صفراء .. »

بدا لى كأنما يقدم قائمة طعام عند (أبو عزام) الكبابجى : كفتة بالسلطة .. كباب بدون سلطة .. الخ .. لكنى عرفت أنه لن يفهم سرّ ابتسامتى هذه ..

سألته متوجسًا :

- « والغرض من هذا كله ؟ »

- « المفترض ألا تسأل .. لكنى أقول - متجاوزًا - إن هذه دراسة ميدانية على عقار جديد للملاريا ، ولسوف نعمل على تقسيم هؤلاء المرضى إلى مجموعتين .. مجموعة تتلقى العقار الجديد وسجموعة لا تتلقاه .. »

قلت محتجًا :

- « لكن يا سيدى .. من القسوة أن نترك مريضًا فى خطر ، ونحرمه علاج الملاريا القديم المضمون لمجرد أن نعرف أكثر .. لماذا لا تتلقى المجموعة الثانية علاجًا على الطراز القديم ؟ »

نظر إلى (آرثر شيلبى) متسائلاً ، فمضغ هذا سيجاره ، وقال :

ـ « من الناحية الإنسانية هذا حل أفضل .. لكن من الناحية العلمية لا قيمة له .. إن مسار المرض الطبيعى من دون علاج هو الذى يحدّد أهمية التجربة .. »

قال (بارتلييه) مؤمنًا على الكلام :

ـ « هذا صحيح .. من أدرانا أن هؤلاء المرضى ما كانوا ليشفوا تلقائيًا حتى لو لم يتلقوا أى علاج ؟ »

هززت رأسى .. أنا غير موافق ، لكن لى حدودى على كل حال .. وقصة (بهرنج) مع مصل الدفتريا معروفة للجميع بلا أدنى شك .. سيخرسون بها أى اعتراض لى على الفور .. وعلى كل حال سيفعلون ما سيفعلونه مهما اعترضت ..

قال (بارتلييه) فى نفاد صبر :

ـ « البروفسور (آرثر شيلبى) سيجلس معك ومع د. (نظير) ، ولسوف يخبركما بأدق التفاصيل

عن عملكما ، ومن المفروغ منه أننى أرغب فى أن تتخلى عن هوايتك .. أنت مولع بأن تتميز وأن يكون لك رأيك الخاص ، ودعنى أقل لك يا بنى إن أية خلية نحل أو مستعمرة نمل ستطردك بعد ربع ساعة من بقائك فيها .. أريد أن تكون نملة فى مستعمرة كبيرة .. نملة بلا رأى ولا ذاتية خاصة .. »

والتهديد واضح طبعًا .. إنه الطرد هذه المرة ..

ليته يفعل ! ليته يطردنى حالاً لأكون بعد ربع ساعة فى الطائرة المتجهة إلى سطح دارنا فى (شبرا) .. ليته يفعل هذا بسرعة بدلاً من بقائى شهرين وسط تحقيقات واستجوابات ومحاولات فهم ، ومحاولات لإعطائى فرصة أخرى ..

أطردنى فورًا ، وسأكون بعد بضع ساعات فى حضن أمى .. ترى كيف تبدو أم (بارتلييه) ؟ لابد أنها بدينة مثله .. ربما ملتحية كذلك ! وكادت الضحكة تنفجر منى لكنى كتمتها بإرادة غير بشرية ..

ـ « هل من أوامر أخرى يا سيدى ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « وماذا عن عملى اليومى ؟ »

ـ « أنت لم تعد ضمن طاقم الوحدة .. لم يعد لديك عمل سوى متابعة حالات الملاريا .. والآن أراكما لم تنصرفا بعد .. ماذا تنتظران ؟ »

* * *

كان (نظير) من (أجرا) ـ بلد (تاج محل) ـ وهو نحيل عصبى كأكثر قومه ، ويحيط السواد الكثيف بعينيه ، كما أنه ينطق الراء الهندية المتضخمة التى تذكرك بحرف الراء الذى ينطقه (فطوطة) .. لم يكن يفهم الفرنسية تقريبًا ، كما أن إنجليزيته لم تكن على ما يُرام ..

باختصار لم أكن أتوقع أن أفهم منه حرفًا أو يفهم منى حرفًا .. وهذا جعل المستقبل رائع الجمال بالنسبة لى .. خير صديق لى فى المرحلة الحالية هو الصديق الأخرس ..

سألنى ونحن منصرفان :

ـ « هذا .. تجربة .. مهم كثير .. »

قلت له وكلى رضا عن الغد :

ـ « هذا .. دولار .. دولار كثير .. »

فانفجر يضحك فى جذل ..

جاءنا (شيلبى) العظيم ، وهو يمضغ سيجاره فى نهم ، وهزّ رأسه ليزيح خصلة الشعر الأشيب إياها عن عينه ، وقال بطريقته الأمريكية الطلقة :

ـ « رباه ! يا له من يوم مجيد ! الآن تعاليا معى لتقابلا الدكتور (هانز شوماخر) الخبير الإحصائى الذى انتدبته الشركة .. »

كان قد اتخذ مكتبًا فى الطابق الثانى من الوحدة .. وتذكرت أن هذا المكتب كان هو (غرفة الجبس) القديمة ، قبل أن تحولها عصا الساحر إلى مكتب أنيق راق ، به جهاز كمبيوتر تسبح الأسماك الملونة على شاشته ..

كان (هانز) هذا هو الشاب المتحمس ، الذى رأيناه يعرض بروتوكول الدراسة على (بارتلييه) .. وقد ارتحت له حين قابلته فهو يبدو متحمسًا وأبله

إلى حدٍّ ما .. (فيما بعد اتضح أن الأبله هو أنا ، لكن دعنا لا نستبق الأحداث) ..

صافحنا (هانز) بحرارة وقال إنه أصلاً طبيب ، لكنه وجد نفسه مسوقًا إلى الاهتمام بعلم الإحصاء الطبى .. وهو علم شديد الأهمية اليوم ، والمختص به يصير قطعة اللحم التى تتقاتل عليها ذئاب شركات الأدوية كلها ..

لوّح بكبسولة من الجيلاتين فى يده ، وقال :

ـ « هذا هو ما ستعطونه للمرضى .. بعض الكبسولات لا يحوى إلا السكر .. والبعض يحوى مادة RW 7654 .. وبالطبع سيأخذ كل مريض دواءه من علبة لم يدوّن عليها شىء .. فقط الرقم الكودى على غرار SLC .. أنا الوحيد الذى يعرف كنه كل كبسولة وما تحتويه .. »

طبعًا سألته عن الفكرة ، فشرح لى ما سبق أن قلته عن التجارب (ثنائية التعمية) .. وأعترف

أننى لم أفهم هذه الأمور من قبل ، لأننا لا نتلقى دورات مهمة عن الإحصاءات الطبية فى مصر ..

ثم قال لنا :

ـ « سنلجأ إلى أسلوب التحليل التتابعى Sequential Analysis ، بمعنى أننى سأجرى حساباتى فى نهاية كل يوم .. وأتوقف حين تكون النتيجة واضحة كالشمس .. »

اعترض (آرثر شيلبى) الذى يفهم الإحصاء كأى شىء آخر :

ـ « لحظة .. إن التحليل التتابعى يؤدى إلى أخطاء لاشك فيها .. منها أن المراقب يوقف التجربة حين تبدو النتائج مما يحلو له .. »

فى برود قال (شوماخر) :

ـ « شكرًا على معلوماتك يا بروفسور (شيلبى) ، لكن شركتى تدفع لى كى أعرف هذه الأشياء ، وكى أختار بنفسى الطريقة التى تناسبنى .. »

وصمت (شيلبى) ..

لكن مع شخص مثله بالغ الاعتداد بالنفس إلى درجة الغرور ؛ كانت العبارة الأخيرة لطمة إلى كبريائه ، وأدركت أنه سيكره (هانز شوماخر) إلى يوم الدين ..

وهكذا جلسنا .. واستغرقت المناقشات نحو ساعتين ..

فى النهاية وضعنا أساس الدراسة ، واتصلت بقسم الحاسب الآلى لنحصل على قائمة كاملة بمرضى الملاريا لدينا .. وشرعنا نقسمهم إلى مجموعات ..

قال (هانز) وهو يضع الأوراق فى ملفّ :

- « سنبدأ العلاج من غد .. كبسولة كل ست ساعات .. أريد ملاحظة دقيقة للأعراض الجانبية .. ربما تتجاهل بعض الصداع البسيط فى الجبهة ، لكن هذا قد يكون عظيم الأهمية لنا .. سأتلقى تقريرًا يوميًا عن كل الحالات ، وتقريرًا أسبوعيًا مفصلاً .. بالطبع سيأخذ كل منكم عدة علب من الكبسولات ، على كل علبة رقم كودى ورقم المريض الذى سيأخذ هذه العلبة ..

« من الآن لا أريد أخطاء .. لا أريد خلطًا فى الأرقام والأسماء .. لا أريد شفقة تدفع الواحد منكم إلى إعطاء المريض قرصًا من الأسبرين أو (الكلوروكين) دون إذنى ..

« سيذهب كل منكم إلى عنبره ويبدأ فى ملء البيانات الخاصة بكل حالة ، ولو تعسر شىء فعليه الرجوع إلى أستاذ طب المناطق الحارة (آرثر شيلبى) .. »

ليس الفتى سهلاً .. إنه يعرف كيف يكون حازمًا متى أراد ..

صحيح أنه ما زال يعرق بغزارة ، لكن هذا لا يتعارض مع الحزم المخيف ..



٤ ـ التجربة ..

كنت جالسًا فى مكتب (شيلبى) ـ بعد استئذانه طبعًا ـ أبحث فى شبكة الإنترنت عن شركة (كوزمو فارما) .. لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى نجح الساحر (ميتاكرولر) فى العثور عليها ، وكان لها موقع أمريكى وموقعان أوروبيان أحدهما بالألمانية ..

كان الموقع مصممًا بعناية ويوحى بالفخامة .. وفى صفحته الأولى يظهر مقر الشركة فى سَويسرا .. كانت هناك معلومات عديدة عن تاريخ الشركة ومنتجاتها وانتصاراتها العديدة فى مجال العلاج الكيماوى بالذات ..

بحثت عن اسم (شوماخر) فلم أجده ، وهو شىء طبيعى بالنسبة لشركة بهذه الضخامة .. لابد أنه يعدّ القهوة للمدير هناك ، أو يفرغ مطفأة سجائره كل صباح ..

بعد هذا بحثت عن العقار RW 7654 ، والبادئة RW توحى بأنه دواء تجريبى .. أما الرقم فقد صار شيئًا تقليديًا يوحى بأنهم جربوا 7653 مركبًا حتى وصلوا إلى هذا الأخير .. وهو تقليد شاع منذ أن جرّب د. (إرليخ) الألمانى مئات المركبات على بكتريا الزهرى ، حتى وصل إلى رصاصته السحرية ..

بالطبع لا أحد يعرف التركيب الكيماوى للعقار ، لأن هذه الأشياء تُسرق بالسرعة التى تسرق بها محفظتك فى حافلة مزدحمة وقت الذروة ..

فيما بعد حين يثبت العقار جدواه ، يتم الإعلان عن تركيبه ، وتطلق عليه الشركة اسمًا جميلاً موحيًا مثل (كوزموسبور) أو (كوزمومالار) ، وتضعه فى عبوات أنيقة تغزو العالم ، وتكسب الشركة عدة مليارات ..

طبعًا لم تكن هناك معلومات كافية عن العقار ، فيما عدا أنهم يجرون عليه تجارب من (الطور الثانى ثنائية التعمية) فى غرب إفريقيا ..

لم يذكروا اسمى طبعًا ، وهى زلة لن أغفرها لهم بسهولة ..

* * *

دخل (شيلبى) الحجرة فوقفت احترامًا ، لكنه أشار لى بالجلوس ، وقال :

ـ « اجلس .. هل ثمة أخبار من الوطن ؟ »

ابتسمت فى مرارة وقلت :

ـ « إن أمى تجيد عشرات الأشياء ، لكن لن يكون بينها أبدًا استعمال البريد الإلكترونى .. إنها من الجيل القديم الذى ما زال يرى (الكاسيت) جهازًا معقدًا شيطانيًا يجب عدم لمسه قدر الإمكان .. »

ـ « إذن عم تبحث ؟ »

ـ « عن عقار RW 7654 طبعًا .. »

قال فى غيظ وهو يجلس على الأريكة :

لن تجد شيئًا بالتأكيد .. إنهم كتومون جدًا ولا يريدون ذكر أى شىء عن الموضوع .. من أبسط حقوقى أن أعرف المجموعة العقارية لهذا الدواء .. »

ـ « فى الغالب هو من أدوية (الشفاء الإكلينيكى) مثله مثل (الكلوروكين) و(المفلوكين) .. »

قال بنفس الغيظ :

ـ « لم يعد أحد يضنى نفسه بهذه الأبحاث .. إن العالم كله الآن يبحث عن لقاح فعال للملاريا .. وكل التجارب تدور حول هذا الموضوع .. »

ـ « ربما أن الملاريا صارت تقاوم كل الأدوية القديمة ؟ »

ـ « ليس فى غرب إفريقيا .. لو أرادوا ملاريا شرسة لا يمكن السيطرة عليها ، فعليهم بأن يقصدوا (الملايو) وجنوب شرق آسيا .. أما هنا .. »

ومط شفته السفلى بازدراء ، وأردف :

ـ « فلا توجد مشكلة هنا أصلاً .. »

* * *

وخرجت إلى عنابر الأمراض المعدية ، حيث أعددنا لمرضى الملاريا جناحًا لطيفًا يغمره الضوء ، وتحيط بأسرتهم شبكات البعوض ، ويفوح المكان برائحة

المبيدات الشجية .. المريض الأول لم يعد له اسم بالنسبة لى ، بل هو المريض 4HR ، ولسوف يأخذ كبسولة من العلبة التى أحملها على صينية ، والتى كتب عليها 4HR ..

المريض الثانى هو 9KL .. وهكذا .. توجد بعض حالات الملاريا المخية العاجزة عن ابتلاع الدواء أصلاً ، وهذه الحالات تم استبعادها وعلاجها بالعلاج الوريدى القديم ، لأن الكبسولات لا يمكن حقنها أو إعطاؤها عبر الأنبوبة الأنفية المعدية ..

صديقى (ماجوبجا) هو شاب كاميرونى شديد الذكاء ، تلمع عيناه كلؤلؤتين ولا تكفان عن الحركة ، وهو ميكانيكى سيارات ويزعم أنه بارع .. وقد أصلح سيارة المدير عدة مرات .. إن ورشته على بعد خمسين مترًا من الوحدة ..

يبتلع الكبسولة ، ويشرب بعض الماء من كوب بلاستيكى ناولته إياه الممرضة (شيلا) الفلبينية .. هذا هو الجزء الوحيد من عملى الذى أسمح فيه للممرضة بالتدخل ..

يسألنى عما إذا كان هذا الدواء فعالاً ، فأقول له :

ـ « لا أدرى .. إنه فعال إلى اللحظة التى تموت فيها .. »

إن أعراض الملاريا تكون قليلة جدًا لدى الأهالى الأصليين فى المنطقة ، وأكثرها يحدث للأطفال .. بينما الكبار تكون مناعتهم قد تنامت إلى حدّ أنهم يتعايشون مع الملاريا تمامًا ، وهذا هو وضع (الاتزان) الذى يتحدث عنه خبراء الأوبئة ..

وهذا ليس أمرًا غريبًا ، لأن شيئًا مماثلاً يحدث مع البلهارسيا عند كبار السنّ ..

فالفلاح المتقدم فى العمر لا يصاب بالبلهارسيا بسهولة .. لماذا ؟ لأن البلهارسيا المسنة التى تعيش فى جسده تقوى جهاز المناعة لديه ، بحيث يحميها من أية ديدان جديدة مراهقة تزاحمها وتجعل حياتها جحيمًا ! والحديث عن هذا يطول على كل حال ..

يظل وضع الاتزان سائدًا حتى يستجد شىء .. والشىء المستجد هو الرجل الأبيض الذى لم يعرف

الملاريا من قبل .. عندها يختل الاتزان ، وتتوجّس الملاريا ، وتغدو الأوبئة أكثر جموحًا .. هذا هو حظ إفريقيا كالعادة : الرجل الأبيض يسرق ثرواتها ويستعبد أبناءها وينشر أوبئته الخاصة ، ويخلّ بتوازن الأوبئة القديمة .. ثم يرحل !

وهذا هو السبب فى زيادة عدد حالات الملاريا فى الآونة الأخيرة .. على ما أعتقد ..

* * *

وحين أفرغ من تدوين الملاحظات السريرية ، ومن إعطاء كل مريض علاجه الخاص ، أبدأ فى أخذ عينات دم من كل مريض ..

يقول (ماجوبجا) محتجًا ، وأنا أتحسس وريده بإصبعى :

ـ « ماذا تفعلون بكل هذا الدم يا دكتور ؟ »

فأقول دون أن أنظر إليه لأننى وجدت الوريد أخيرًا :

ـ نشربه طبعًا .. هل تعرف استخدامًا آخر للدم غير هذا ؟

ويمتلئ المحقن بالسائل الأحمر ، فأفرغه فى زجاجة خاصة تحمل اسم المريض 3DK وتاريخ اليوم والساعة ، ثم انتقل لمريض آخر ..

هنا تكون الساعة هى الثانية عشرة ظهرًا ..

أحمل عيناتى وأتجه إلى معمل دكتورة (هيلين) ، الذى هربت منه ذبابة (تسى تسى) يومًا .. فتشكرنى وتبتسم ابتسامتها المحايدة المهذبة ، ثم تبدأ فى استعمال أصباغها وبراعتها ، وتعدّ شرائح الدم السميكة والرقيقة ..

وتحت المجهر ؛ تبدأ مهمتها المعقدة فى تحديد مدى تأثر طفيل الملاريا الشرير بالعقار ، ودرجة مقاومته .. وهى قصة طويلة مرهقة لا داعى لتصديع رءوسكم بها ، لأن هذه رواية وليست دراسة عن مرض الملاريا ..

تكتب تقريرها المزوّد بصور فوتوغرافية التقطتها تحت المجهر ، ويقوم أحد الفنيين بطبعها ، ثم تضعه فى ملف خاص عليه تاريخ اليوم ...

وأنصرف من عندها ، وقد انتهت مهمتى تقريبًا ..
لدىّ النهار بطوله أقضيه فى كتابة الخطابات ، ومحاولة قراءة الصفحة 108 من كتاب (إيسلباتشر) الموضوع - كجثة هامدة - على فراشى منذ عام ...

من يدرى ؟ ربما أقوم بطرقعة أصابع قدمى كذلك ، بينما أنا متربع على الفراش .. وإنها للذة عظمى ..

صحيح أننى سأقوم بجولة عابرة فى المساء على مرضاى ، وصحيح أن علىّ فى تمام التاسعة أن أحمل ملف الدكتورة (هيلين) اليومى ، مع تقرير المعمل عن الإتاحة الحيوية للعقار ، وأتجه إلى مكتب (شوماخر) الذى استولى عليه ..

أجده جالسًا يتكلم فى الهاتف ، بينما الأسماك تسبح على شاشة الكمبيوتر فى برنامج (واقى الشاشة) الذى يستعمله ..

يرانى فيضغط زرًا كى تختفى الأسماك ، وأرى الجداول الإحصائية المعقدة التى يجيد تصميمها ..

يضع الأوراق أمامه ، وينهى المكالمة ثم يسألنى :

- كل شىء على ما يُرام ؟ »

- « قطعة من الكعك كما يقول الإنجليز .. »

سيكون عليه أن يسهر ساعتين ، يقوم فيهما بإدخال البيانات ، ثم يقرر استمرار الدراسة من عدمه .. طبعًا لم يحن الوقت لهذا بعد لأنه اليوم الثانى ..

أتأمل صورة الفتاة الجميلة الموضوعة أمامه على المكتب ، وأسأله :

- « من هذه ؟ »

- « (هيلدجارد) .. زوجتى .. »

غريب أن تحمل فتاة بهذه الرقة اسمًا كهذا .. لكن هذه مشكلتها على كل حال .. وهنا يخطر لى أن أسأله سؤالاً فضوليًا سخيفًا :

- « هل أنت الممثل الوحيد لشركة (كوزمو فارما) فى (سافارى) الآن ؟ »

- « هم م م ! »



أتأمل صورة الفتاة الجميلة الموضوعة أمامه على المكتب ، وأسأله :
ـ « من هذه ؟ » ..

يقولها ويعقد كفيه تحت ذقنه ، كمن يسأل : (ثم ماذا ؟) ، فأقول له :

ـ « ما هو الضمان أنكم لن تقوموا بتلفيق النتائج لتبرهن على نجاح العقار ؟ »

ابتسم فى سماحة كمن يسمع طفلاً يهذى ، وقال :

ـ « لا ضمان سوى ضمائرنا .. »

كدت أصارحه أن هذا بالذات هو ما يجعل القصة مريبة .. ثم آثرت الصمت ، بينما أردف هو بنفس السماحة :

ـ « بالطبع سنحصل على توقيعات كل من شارك فى الدراسة ، وهى شهادة على أنها قد أجريت بأيد محايدة .. لابد من توقيع البروفسورين (بارتلييه) و(شيلبى) ، وتوقيع د. (هيلين ماكنلى) .. وتوقيعك أنت وزميلك ..

« إن وحدة (سافارى) محايدة موثوق بنزاهتها ، وهى بعيدة عن تدخل الشركات والحكومات ، لهذا تعتبر شهادتها دامغة .. »

عدت أسأله ، وأنا أنتظر اللحظة التى ينفجر فيها صارخًا (هذا ليس من شأنك) :

- « مازلت لا أعرف الضمان ؟ »

- « أى ضمان تقصد ؟ »

- « ضمان نزاهة (سافارى) .. إن كل شىء يمكن رشوته ، ولسنا مجموعة من الملائكة هنا .. »

هنا بدأت حماسته تتحول إلى عصبية ، وعاد العرق يغمر وجهه :

- « إلام تلمح بالضبط ؟ »

قلت صادقًا :

- « لا ألمح .. أنا أحاول الإلمام بكل جوانب هذا الموضوع .. لا خبرة لى بدراسات مماثلة كما تعلم .. »

قال وقد استرد هدوءه :

- « هذه ليست الدراسة الوحيدة .. هناك عشر دراسات تتم حاليًا حول العالم ، فى أمريكا الجنوبية

وجنوب شرق آسيا وبلدان إفريقية أخرى .. ربما نستطيع التلاعب بدراسة واحدة ، لكن ليس عشر دراسات .. هل فهمت ؟ »

- « فهمت .. »

وابتسمت .. إن لسانى المشاكس لا يمكن ترويضه حقًا ، ولعل السكين هى الأسلوب الوحيد للتعامل مع هذا العضو الزلق .. لكنى استرحت الآن ..

حقًا إن (كوزمو فارما) من الشركات المحترمة المعدودة فى هذا العالم ..

* * *

٥ ـ أشياء غير معتادة ..

مرّ أسبوع على هذا كله ..

وكنت ـ بنوع من الملاحظة الخبيثة ـ قد استنتجت المرضى الذين يتحسنون ، وبالتالى هم يتعاطون العقار RW 7654 ..

الآخرون كانوا مستمرين فى التدهور .. بل إننا فقدنا ثلاثة منهم نتيجة فشل كلوى حادّ ، لم يُجدِ معه الغسيل البريتونى ولا الدموى ، كما لم تفدنا إرشادات البروفسور (باولو دوسبارى) خبير أمراض الكلى الإيطالى ..

لقد كان ارتفاع البوتاسيوم فى دمهم عنيفًا جامحًا ، وأسرع من كل جرعات المدرّات و (الكاتونيام) ، ومن جهاز غسيل الكلى نفسه ..

ولم تلبث القلوب أن توقفت ..

وشعرت بغصة فى حلقى ..

هؤلاء البؤساء ماتوا دون أن يظفروا بأى علاج جديد أو قديم .. وهى فى رأيى جريمة بالنسبة لوباء صار علاجه محفوظًا ، ويعرفه كل طالب طب ، وربما كل طالب فى المدرسة الثانوية لو كان ذكيًا أكثر من اللازم ..

حملت همومى المهنية واتجهت إلى (بارتلييه) ، وقلت له :

ـ « إن ضميرى لم يعد يتحمل هذا يا سيدى .. تصوّر أن لديك مريضًا يموت بالتيفود ، وأنت تعرف أن بضع جرعات من (الكلورامفنيكول) ستنهى المشكلة .. برغم هذا تتركه يموت بحجة الدقة العلمية .. »

صب لنفسه بعض القهوة ، وقد صمم على أن يقاوم نزعات قلبه الحنون الواهن .. عليه أن يكون حازمًا ويقتنعى بأنه حازم :

ـ « (علاء) .. إن العلم هو العلم .. وما يبدو اليوم قسوة قد يكون منتهى الرحمة نحو الأجيال

القادمة .. فكر فى كل الفئران وخنازير (غينيا) البائسة التى ماتت وهى تتعذب بالجمرة أو الدرن .. إننا نجنى اليوم ثمار آلامها .. »

ورشف بعض القهوة ، وأردف :

ـ « لقد وقع (بهرنج) و (رو) فى ذات الخطأ يومًا ما ، حين اكتشفا مصل الدفتريا المضاد للسمية .. »

وكاد يحكى لى تلك القصة المملة ، لكنى لم أتحمل قط سماع ذات الشىء مرتين ، لذا قاطعته فى حماسة .

ـ « أعرف .. أعرف .. لكن لم يكن وقتها علاج بديل فعال للدفتريا .. »

فتح ذراعيه فى بساطة وهتف :

ـ « .. الأمر هو نفس الشىء .. لم نجد بعد علاجًا للملاريا لا يقاومه الطفيل بعد فترة .. »

ـ « بروفسور (شيلبى) يقول إن هذه ليست المشكلة فى (الكاميرون) .. إن الملاريا هنا ودود رقيقة تموت سريعًا بالعقارات القديمة .. »

فكَر قليلاً ، ثم لم يجد سوى الحل الجذرى الفعال من فجر التاريخ :

ـ « عُد لعملك يا دكتور (عبد العظيم) .. وتذكر أنك .. أنك .. »

ـ « نملة فى مستعمرة بلا رأى .. حسن يا سيدى .. سأتذكر هذا .. »

وقلت لنفسى إننى سأقول يوم الدينونة إننى كنت أنفذ أمرًا صادرًا من رئيسى ، ولم يكن لى حق الاعتراض .. لكن جزءًا من ضميرى قال لى فى صرامة :

ـ « يمكنك أن تستقيل لو كنت متحمسًا إلى هذا الحدّ .. تذكر الشاعر الفرنسى (رانبو) الذى قرر أن يكسب رزقه من تجارة العبيد .. كان الحل الشريف الوحيد الذى وجده هو أن يهجر الشعر .. لأنه لا يمكن أن يوجد شاعر نخاس ! »

قلت كعادتى فى الجدل :

ـ « كان الأكرم له لو ترك النخاسة واحتفظ بالشعر .. »

- « هو على الأقل قرر وتحمل قراره .. وماذا عنك أنت ؟ »

هززت كتفى ، وقررت أن أواصل التجربة ..

هناك دائمًا لحظة مناسبة للتراجع ، حين تسوء الأمور أكثر من اللازم ..

* * *

وفى الأيام التالية فقدت مريضين ، وفقد صديقى الهندى (نظير) ثلاثة .. بينما راح بعض المرضى يتحسنون بشكل غير مسبوق ..

وكان ممن ساءت حالتهم صديقى الأسود (ماجوبجا) ، الذى ذهبت كى أعطيه الكبسولة المعتادة ، فصاح فى وجهى ..

- « لن أبتلع هذا الشىء ثانية ! أنتم تقتلوننا يا دكتور ! »

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها احتجاجات مماثلة ، والحقيقة هى أن عنابر الملاريا

كانت تموج بثورة كالتى حدثت يومًا على السفينة (بونتى) .. ولو كانت هناك أسماك قرش حول (سافارى) لرموا بنا إليها ..

قلت فى عناد وأنا ألوح بالكبسولة :

- « هناك فارق بين أن يؤذيك العلاج ، وأن يعجز عن شفائك ! »

قال فى شراسة لم أعهدها منه :

- « إننى أبول دمًا .. منذ البارحة أبول دمًا .. »

- « هذه هى الملاريا .. »

- « لقد أصيب بها أبى وجدى وجد جدى ، ولم يُبل أحدهم دمًا .. أنت تخلط بين الملاريا والبلهارسيا يا دكتور ! »

طبعًا هى إهانة .. لكنى لا أردّ أبدًا على إهانات المرضى ، فليس على المريض حرج .. وبينى وبينك بدأ (الفأر يلعب فى عبّى) .. ماذا لو كنت مخطئًا ؟ وماذا لو كنت حمارًا ؟

وللمرة الأولى كوّرت الكبسولة ودسستها فى جيبى ، فهمس الفتى :

ـ « خذ الحذر .. إن الممرضات يتجسسن عليك لمعرفة هل تعطينا العلاج أم لا .. وكلهن يخضع لاستجواب دقيق بعد انصرافك ! »

نظرت حولى ، فلم أر عيونًا تراقبنى ..

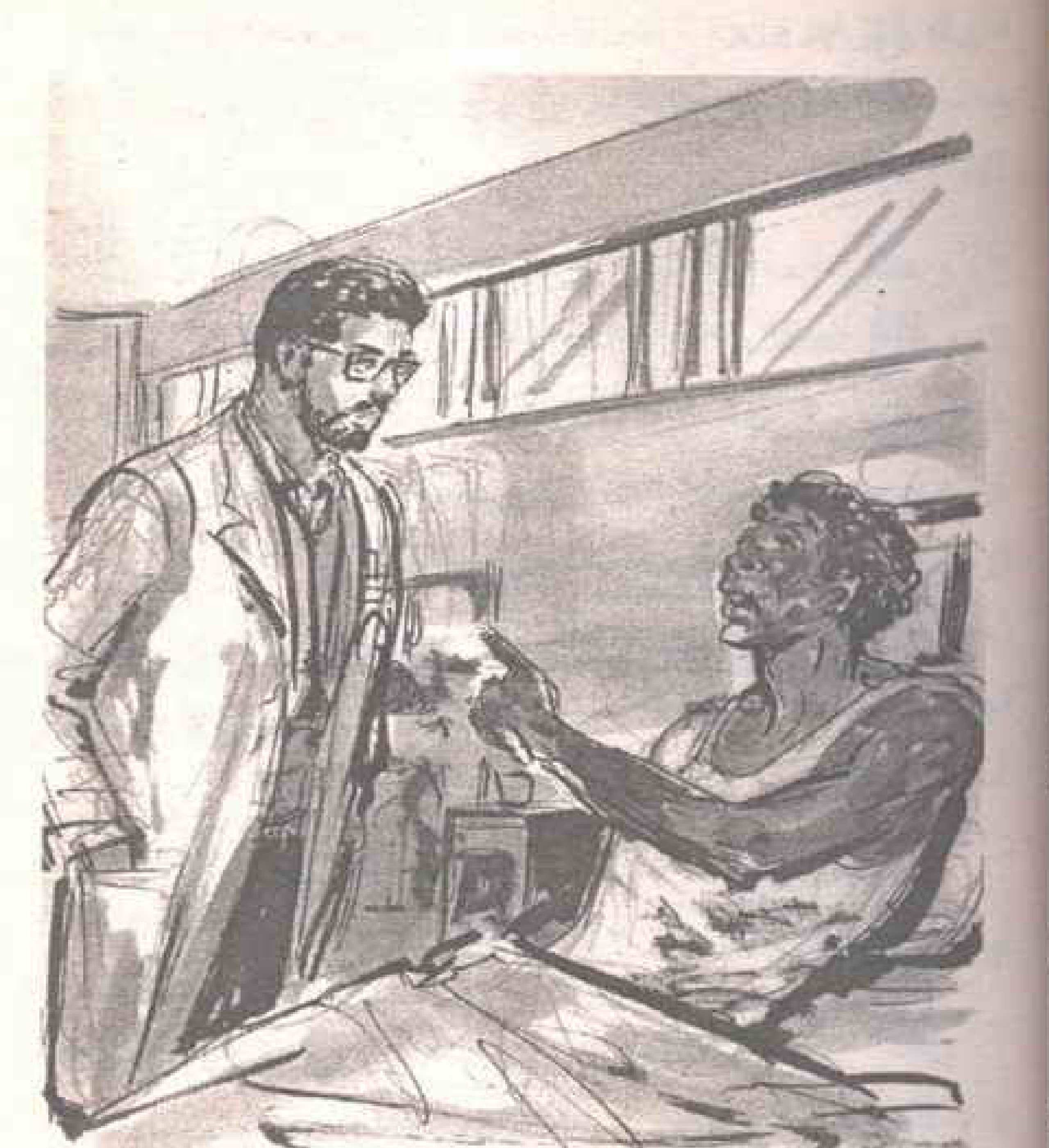
قلت له :

ـ « سأرى ما هنالك .. فلا تقلق .. »

ثم انحنيت أتفحص كيس البول الذى تصب فيه القسطرة .. كان مليئًا بسائل دموى لكن عكارة مترسبة مخضرة تجمعت فى قاعة ..

وبخطوات ثابتة اتجهت إلى حيث كان (شيلبى) فى مكتبه ..

حكيت له كل شىء .. بدا عليه الاهتمام ، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب دكتورة (هيلين) فى المعمل وسألها عن بضعة أشياء خاصة بالمريض ، ثم عاد يسألنى :



وللمرة الأولى كورّت الكبسولة ودسستها فى جيبى ، فهمس الفتى :
ـ «خذ الحذر .. إن الممرضات يتجسسن عليك لمعرفة هل تعطينا العلاج أم لا» ..

- « هل تعتقد أن هذه ليست حمى الماء الأسود ؟ »

- « لا يا سيدى .. »

- « والسبب ؟ »

- « لأننى لم أر المريض يبول دمًا معها قط .. أليس اسمها (البول أو الماء الأسود) ؟ »

مضغ سيجاره فى تلذذ وقال :

- « خطأ .. لو كان البول حمضيًا فلونه أسود ، ولو كان قلويًا فلونه أحمر .. هل تأكدت من حمضية بول هذا المريض (PH) ؟ »

- « لا .. »

قلتها بخيبة أمل .. إن هذا الرجل لا يمكن هزيمته أو إقناعه بشىء .. لكنه قال فى سرور وهو يواصل المضغ :

- « لكن كلامك دقيق إلى حدّ ما .. هل تعرف ما قالته دكتورة (ماكنلى) ؟ قالت إن المريض 3DK هذا يمتلئ دمه اليوم بطفيل الملاريا .. وأنت

تقول إن حرارته عالية جدًا .. هل تعرف معنى هذا ؟ معناه أنه من المستحيل أن يكون مصابًا بحمى الماء الأسود ! »

وحمى الماء الأسود هى واحدة من مضاعفات المرض الخطيرة ، وتحدث لمن لا يملكون مناعة خاصة للملاريا .. النموذج الأمثل لها هو رجل أوروبى يصاب بالعدوى فى قلب إفريقيا ، ثم يعود لوطنه ، ويتناول جرعات غير منتظمة من (الكينين) ، ثم يتعرض للبرد والإجهاد .. هنا يحدث تكسير عام لخلايا دمه ، وتصاب كليته بالفشل ، ويبول بولا أسود اللون .. ثم فى الأغلب يموت ..

من النادر أن ترتفع حرارة هذا المريض كثيرًا ، أو أن نجد الطفيل بكثرة فى دمه ..

وهذا يعنى أن الفتى (ماجوبجا) يبول دمًا لسبب لا يتعلق بالملاريا ..

فهل يتعلق بدوائها ؟

* * *

على كل حال ؛ قد قمت بما يجب القيام به ..

قمت بتحليل البول ، وأجريت عدة أبحاث على دم الفتى ، ثم قمت بعرض النتائج على (دوسبارى) أستاذ أمراض الكلى الإيطالى ، فكان رأيه أن هذا فشل كلوى حادّ بسبب أذى بالغ لنفرونات الكلى ، وطلب أن أعدّ الفتى للغسيل الكلوى اليوم ..

وبالفعل بدأ (ماجوبجا) يتحسن ، لكنى لم أعرف إن كان سيغسل كليتيه إلى الأبد أم هى فترة عارضة ..

بالمثل لم أجرؤ قط على إعطائه المزيد من الكبسولات ..

وعند العصر قابلت (نظير) زميلى الهندى ، وكان السواد حول عينيه قد ازداد كثافة ، ولوّح بذراعيه فى هلع قائلاً :

ـ « هذا .. تجربة .. مشكل .. كثير .. »

وافقته تمامًا على رأيه .. فهذا (مشكل كثير) فعلاً ..

من الواضح أن المرضى صاروا شرسين جدًا ، وصار من العسير إقناعهم بأخذ مزيد من الكبسولات ، خاصة وهم يرون كل يوم واحدًا منهم يغادر المكان فى وضع أفقى تتقدمه قدماه .. إنهم يشعرون بأن شيئًا ما خطأ ..

وعند المساء ذهبت إلى مكتب (شوماخر) ..

كان جالسًا أمام الحاسب الآلى كعادته ، وهو يستعمل كذلك آلة حاسبة معقدة ، وقد امتلأ مكتبه بتقارير المعمل والصور .. وأمامه كيس من الفول السودانى ..

قلت له فى كياسة :

ـ « سيدى .. إن الثورة تعمّ العنابر .. لن يقبل مريض واحد أن يستعمل كبسولة أخرى .. »

قذف بحبتى فول إلى فمه ، وقال :

ـ « نعم .. أعرف هذا .. »

ثم نظر إلى الشاشة ، وقال :

ـ « هذه هى مزية التحليل التتابعى للنتائج .. صار واضحًا الآن أن التجربة يجب أن تتوقف .. ولسوف تتوقف .. »

قلت فى غباء :

ـ « و .. والدراسة ؟ »

نافد الصبر ، قال :

ـ « قلت لك إننا نجرى التحليل التتابعى يومًا فيومًا ، وقد غدونا الآن فى وضع مناسب يسمح لنا بالتوقف وإعلان ما وصلنا إليه .. ويمكننى هنا القول ـ بتحفظ ـ إن نتائج RW 7654 تقترب من الكمال كثيرًا .. لم يمت أحد من مرضانا ، ولم تحدث أعراض جانبية ، ومعدلات الشفاء عالية جدًا .. »

ـ « إذن الذين ماتوا .. ؟ »

ـ كلهم من المجموعة الضابطة .. المجموعة التى لا تتناول دواءنا بل تتناول البلاسيبو .. »

ثم نظر لى وبحزم قال :

ـ « د. (علاء) .. أنا أطلب منك وزميلك رسميًا وقف التجربة ، ولسوف أبلغ المدير بقرارى هذا حالاً .. »

وقبل أن أنصرف ، أضاف :

ـ « وأريد كل ما تبقى معك من دواء أنت وزميلك ، خلال نصف ساعة من الآن .. »

* * *

٦ ـ شياطين !

بعد يومين تلقيت الخطاب الذى كنت أنتظره ..

كان خطابًا من (ياوندى) .. وقد كتب على أوراق تحمل شعار فندق (فكتوريا) الذى يقيم به البروفسور (مورجان) .. ما كان لمستشار بالغ الأهمية مثله أن يقيم فى وحدة (سافارى) التى لا توحى بأى طابع مريح ، حتى ولو أقام فى فيلا المدير نفسها ..

فتحت الخطاب والتهمت ما فيه فى نهم :

(ياوندى) فى ١٩٩٧/١٨/١٠ :

عزيزى د. (عبد العظيم) :

طالعت باهتمام بالغ رسالتك التى أرسلتها لى منذ يومين ، وإننى أفهم أسبابك التى تدعوك إلى مطالبتى بإبقاء هذا كله سرًا ..

راقت لى كذلك الطريقة التى قمت بها بتغليف الكبسولات بورق الألومنيوم ، مع إشارة واضحة مثبتة إلى كل كبسولة تحدد الرقم الكودى للمريض الذى يتعاطاها ..

إن التلاعب بالتجارب الدوائية خطير ، وأرجو أن تكون متأكدًا من أن أحدًا لا يعرف حقيقة أنك احتجزت خمس كبسولات لتحليلها ..

على كل حال ، لقد فعلت كما طلبت منى ، واتصلت بمعمل تحاليل أثق به ، يخصّ منظمة الصحة العالمية ، وكانت نتيجة التحليل الكروماتوجرافى باستخدام جهاز HLPC هى :

الكبسولة RX8 تحوى (كلوروكين) .. بالتأكيد هو كذلك ..

الكبسولتان 3DK ، 4HK تحويان مادة مجهولة عالية السمية لأن محتواها من الرصاص أعلى من اللازم ..

الكبسول 9AZ تحوى (كلوروكين) ..

الكبسولة 6HR تحوى بعض السكر .. نعم .. سكر طعام عادى جدًا ..

لا أدرى إن كانت هذه المعلومات ذات أهمية لك ، لكنى أجد أن هذه المحتويات لا تشير إلى دراسة جادة .. ولا يمكن استنتاج شىء منها ..

أرجو أن تخبرنى بما تفكر فيه ، وأن تقدر لخطواتك موضعها ، لأن هذا لعب بالنار ، وشركة (كوزمو فارما) وحش حقيقى ثرى ، يملك من المحامين أكثر مما فى رأسك من شعر ، ولن تلبث أن تجد نفسك سجينًا مديونًا ، متهمًا بقتل (غاندى) نفسه ، فهؤلاء القوم لا يمزحون ، خاصة وهم يتعاملون مع مئات المليارات من الدولارات .

بإخلاص : ف. هـ. مورجان

* * *

شكرًا يا بروفسور (مورجان) ..

شاب مثلى بلا حيثية يقترح فكرة مجنونة ، وبرغم هذا يهتم بها هذا الرجل العظيم ، ويوليها ساعات من وقته ..

والآن يجب أن أحلل هذا الذى أعرفه جيدًا ..

يمكن القول دون خطأ كبير إن الدواء WR 7654 لم يُعط للمرضى ، أو أن سميته عالية جدًا وهو يحوى الكثير من الرصاص ..

إن العينتين RX8 و 9AZ هما عينتان من عينات المرضى الذين تحسنوا .. هذا طبيعى لأنهم تعاطوا (الكلوروكين) .. لكن الشركة ستزعم ـ طبعًا ـ أن هذه عينات كانت تحوى العقار RW 7654 ..

المرضى الذين ساءت حالتهم تعاطوا العينات 3DK ، 4HK ، 6HR ، .. صديقى الإفريقى كان يتعاطى 3DK .. أول عينتين تحويان سمًا ، والعينة الثالثة بها بعض السكر فلا جدوى منها ..

من جديد ما معنى هذا ؟

معناه أن الشركة ـ غير الواثقة من عقارها ـ صممت دراسة خادعة .. مجموعة من المرضى تتعاطى (الكلوروكين) تحت زعم أنها تتعاطى RW 7654 ، ومجموعة أخرى تتلقى سمًا أو لا تتلقى

أى شىء على الإطلاق ، على زعم أنها تتعاطى البلاسيبو ..

ما هى النتيجة ؟

شفاء تام مذهل للمجموعة الأولى ، وتدهور مثير للشفقة للمجموعة الثانية .. وفى النهاية تخرج الدراسة تحمل توقيع الحمقى جميعًا : (بارتلييه) و(شلبى) و(هيلين) وأنا و(نظير) .. وسرعان ما تجد طريقها إلى دوريات علم الأدوية العالمية ..

وانتصب شعرى رعبًا ..

أنا أحب الأشرار بطبعى لأنهم يجعلون الحياة مثيرة ، ولأنهم يجعلون الخير يبدو أجمل .. لكن هؤلاء ليسوا أشرارًا .. إنهم شياطين ..

* * *

« لكننا اليوم نجد نوعًا جديدًا من الدواء .. لقد انتهى العصر السعيد للأدوية غير المفيدة ، ليبدأ عصر الأدوية القاتلة ! »

« الحقيقة يا سادة هى أن الفقراء فى عالمنا هذا هم مصدر الثراء الرئيسى للأغنياء .. إنهم يدفعون أكثر ويعانون أكثر ويموتون بلا ضوضاء .. »

* * *

شهوة الكسب !

اصطدمت بها حين انتدبت إلى (بوركينا فاسو) لأعمل تحت إمرة أعظم رجل عرفته : (إبراهيم مالك سامبا) .. واليوم أصطدم بها ثانية ، وفى المرتين يصيبنى الذهول ..

لقد كان القراصنة أشرف بكثير ، حين كانوا يهاجمون السفن ويسطون على حمولتها ، ويلقون بالناجين إلى البحر .. كانوا يضعون عصابات على الرءوس ، ويدسّون الخناجر بين أسنانهم ، وهذا أقرب للتحضر من قراصنة العصر الحالى ، الذين يرتدون ربطات العنق ، ويحملون الهاتف الخلوى ، ويجيدون استعمال الكمبيوتر ..

الآن يجب أن نواجه البروفسور (بارتلييه) العظيم بهذا كله ..

من الممكن أن يكون عارفًا بهذا ، وأن يكون متواطئًا مرتشيًا .. لكن لا .. هذا الرجل طفل كبير بدين يُخدع ولا يَخدع ـ بضم الياء الأولى وفتح الثانية ـ وإن تورط فى قصة كهذه ، فلأنه تحمس للنتائج ولسمعة الشركة ..

اقتحمت مكتبه كالإعصار ، غير مبال باحتجاج السكرتيرة ..

قال شيئًا بالفرنسية لم أفهمه ، لكن له رنين (يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم) أو (بيطلعوا الساعة كام ؟)

قلت لاهثًا وأنا أضع خطاب (مورجان) تحت أنفه :

ـ « كما توقعت يا سيدى .. هؤلاء مجموعة من السفلة ! »

نظر لى فى حيرة ، وتساءل :

ـ « من بالضبط ؟ »

ـ « هؤلاء السفاحون فى (كوزمو فارما) .. »

قال فى ضيق :

ـ « بربك هلا جلست ، وكففت عن محاولة إدخال هذه الورقة فى عينى ؟ أنت تعرف أن لغتى الإنجليزية رديئة .. فهلا ترجمت لى المكتوب ؟ »

وهكذا جلست ، ورحت أشرح له القصة برمتها ..

* * *

ـ « إن ما تقوله خطير .. »

ـ « لكنه ـ كذلك ـ حقيقى .. »

ـ « و (آرثر شيلبى) .. ألم يلحظ شيئًا ؟ »

ـ « أحيانًا لا يلاحظ البروفسور (شيلبى) إلا كم هو وسيم رائع .. »

قال وهو يحك الشحم فى عنقه :

ـ « لقد جاءنى اليوم التقرير النهائى للدراسة ، وهم ينتظرون توقيعى .. »

قلت بعصبية :

ـ « لا توقَّع يا سيدى .. يجب إبلاغ وزارة الصحة فى (ياوندى) .. »

فكَّر هنيهة ثم قال :

ـ « هل لديك بعض الكبسولات ؟ »

ـ « ولماذا تفكر فى هذا ؟ »

ـ « لأنك أخبث من أن ترسل دليلك الوحيد بالبريد ، معرضًا إياه للضياع ! »

أسقط فى يدى ، فقلت مستسلمًا :

ـ « معى حوالى خمس كبسولات أخرى .. »

ـ « ليكن .. سنقوم بتحليلها حالاً .. »

ومدّ يده إلى سماعة الهاتف ، واتصل بالمعمل ..

* * *

٧ ـ المتسلل ..

وفى التاسعة مساءً ، كنا نجلس فى مكتب (بارتلييه) نتأمل النتائج التى جاءت من المعمل .. أنا والمدير و(شيلبى) .. أعنى بالطبع أننى كنت ثالث الثلاثة !

كانت النتيجة لاتقبل الشك .. نفس المعلومات التى حصلت عليها من (مورجان) وكان من السهل علىّ أن أقول نتيجة كل عينة قبل أن يطالعها (بارتلييه) فى كشف النتائج .. هذا كان يتحسن إذن هو كان يتعاطى (الكلوروكين) ، وهذا كان يتدهور إذن كان يتعاطى سمًّا ، وهذا لم يطرأ له تغير .. إذن هو كان يبتلع السكر !!

كان (شيلبى) مذهولاً ، لكنه ـ كما قلت ـ كان قد ضم (شوماخر) إلى قائمة أعدائه منذ زمن سحيق ، وصار يتوقع أى شىء ..

بعد انتهاء الجلسة ، ساد الصمت لوهلة .. ثم تكلم (شيلبى) :

ـ « بالطبع لم يعد لديك ورفيقك المزيد من الكبسولات .. »

ـ « لا .. (شوماخر) قام بجمعها .. »

قال (بارتلييه) فى حماسة ، وقد احمرّ وجهه كعرف ديك :

ـ « سيكون علينا الآن الاتصال بوزارة الصحة .. »

ببرود قال (شيلبى) :

ـ « لو كنت مكانك ما فعلت يا (موريس) .. »

ووضع ساقًا على ساق ، وقال بطريقته المسرحية التى يستمتع بها :

ـ « لم يبق لدينا من دليل سوى بعض الكبسولات مع (شوماخر) .. والأمر لا يحتاج إلى ذكاء كثير كى نعرف نتيجة تحليلها : بعضها فارغ به بعض السكر ، وبعضها يحوى عقارًا مجهولاً هو RW 7654 .. باختصار : ما قالته الشركة صحيح ..

« سيتهمنا بالتشهير بشركته وتخريب دراسته العلمية ، ولسوف يخرج محاموهم واللعاب يسيل من أشداقهم ليظفروا بنا .. سيطلبون مائة مليون تعويضًا لهم ، ولن نجد سوى كلمات طبيبنا الشاب ، بينما لا يوجد دليل مادى واضح .. »

ارتجف (بارتلييه) لهول الفكرة ، وقال :

ـ « وبالطبع لن يدفعوا لنا التمويل المتفق عليه .. »

ـ « هذا أبسط ما يعملونه .. »

كنت أعرف هذا وأتوقعه .. السبيل الوحيد للشركة كى تدافع عن سمعتها هو مزيد من الشراسة ، ومزيد من الصراخ .. وتذكرت مثلنا الشعبى المصرى (الحقوهم بالصوت) .. ومعناه ـ طبعًا ـ هو أن تكون أنت الأكثر حماسة وغضبًا ، إذا كنت أنت الطرف المخطئ .. ولا أشك أن الشركة قادرة على الصراخ أعلى من الآخرين ..

قال (بارتلييه) فى تعاسة :

ـ « وماذا نفعل ؟ أنوقّع ببساطة على أن التجربة هى النجاح بعينه ؟ »

قال (شيلبى) وهو يخرج سيجاره من علبته المعدنية الأنيقة :

ـ « هناك سياسة وسطى : المماطلة .. تلكأ فى التوقيع .. اكسب وقتًا .. تظاهر بأنك مشغول .. فى هذا الوقت ننتظر نتائج تشريح الجثث ، ونحصل على تقرير موقع من (جيديون) .. كما أن علينا أن نحاول الحصول على مفتاح الدراسة .. يجب معرفة من تلقى العلاج حقًا ومن تلقى اللاسييو .. لقد استنتج صديقنا المصرى مجموعاته ، لكن (شوماخر) يستطيع أن يهدم كل هذا بأن يغير مفاتيح الدراسة .. »

ـ « وكيف نحصل عليها ؟ »

قلت فى حماسة :

ـ « إنه يضع كل شىء فى ذاكرة حاسبه الآلى .. »

ـ « إذن علينا التسلل إليه ، ونسخ تلك القوائم .. »

تبادلنا النظرات للحظات ..

ثم إن (بارتلييه) مدّ يده فى درجه ، وأخرج مفتاحًا صغيرًا مدّ يده به لى ، وقال :

ـ « كيف براعتك فى الكمبيوتر ؟ »

ـ « متوسط يا سيدى .. متوسط .. لكن لا تقل إن .. »

ابتسم فى مرارة وقال :

ـ « إنها فرصتنا .. وهو لا يعرف أن لدىّ نسختين من مفتاح الغرفة التى منحته إياها .. سأبقيه فى مكتبى ساعتين أو أقل .. فهل تعتقد أنك قادر على تفتيش الجهاز جيدًا ؟ »

نظرت إلى (شيلبى) مستغيثًا ، فوجدته يخط لى بعض أوامر التنفيذ على ورقة ..

وبعد ثوان ناولنى إياها وقال :

ـ « إنها قطعة من الكعك .. هنا تجد طريقة التأكد من عدم وجود ملفات مخفية ، ثم باستعمال أداة البحث فى الملفات ، تبحث عن تعبير RW 7654 ، أو عن رموز مثل 3DK .. إلخ .. كل شىء واضح هنا .. »

- « وماذا لو كان عبقريًا ، وابتكر طريقة حماية معقدة ؟ »

أشعل السيجار وقال :

- « لا أحسبه عبقريًا .. إنه مجرد خبير أخصائى وليس عالمًا فى الكمبيوتر .. »

- « ولماذا لا تجرب أنت ؟ ظننت الاحتمالات أفضل معك .. »

نفث الدخان سحابة كثيفة وقال :

- « لأننى مسنٌ ولا أملك لياقتك .. من السهل عليك أن تتوارى تحت الفراش ، حينما يقتحم الحجرة فجأة ، بينما سنى ومركزى لا يسمحان بهذا ! »

- « لا يوجد (تحت فراشى) فى غرفته ، لأنه لا يوجد فراش أصلاً .. »

هزّ شعره الأشيب منبهرًا ، وقال :

- « أرأيت ؟ أنت تلاحظ ببراعة كل شىء .. أنت مناسب .. وستنجح ! »

وقبل أن أعترض أكثر ؛ طلب المدير سكرتيرته وقال :

- « أطلبى الدكتور (هانز شوماخر) فى مكتبى حالاً .. »

ونظر لنا بما معناه أن نسرع بالانصراف .. ودون كلمة ناولنى قرصين مرنين ..

* * *

وهكذا وجدت نفسى متسللاً إلى غرفة (شوماخر) .. هذه المرة بأمر المدير نفسه .. طبعًا سياسة (بارتلييه) هى سياسة (قائد وجندى) الشهيرة .. الجندى يتصرف على مسئوليته الخاصة فإن أخطأ فهو المجرم الوحيد ، وهو من يُعاقب .. أما إن نجح فذلك يعود إلى ذكاء القائد ودقة تخطيطه ..

إنها الحادية عشرة مساءً ، ولا يوجد أحد فى الردهة ..

أخرجت المفتاح وعبثت بالكالون حتى استجاب ، وأضأت النور الكهربى ..

كانت الغرفة تفوح برائحة مبيدات الحشرات ، ويبدو أنه لم يكن من عشاق الملاريا .. وكان جهاز الكمبيوتر مفتوحًا وعلى شاشته تسبح الأسماك كعادتها .. وعلى المكتب انتثرت الأوراق والآلات الحاسبة والأقلام وحبات الفول السودانى ..

أمسكت بالفأرة وحركتها لتختفى الشاشة كالعادة لكن ظهرت لى نافذة تطلب منى كلمة السرّ ..

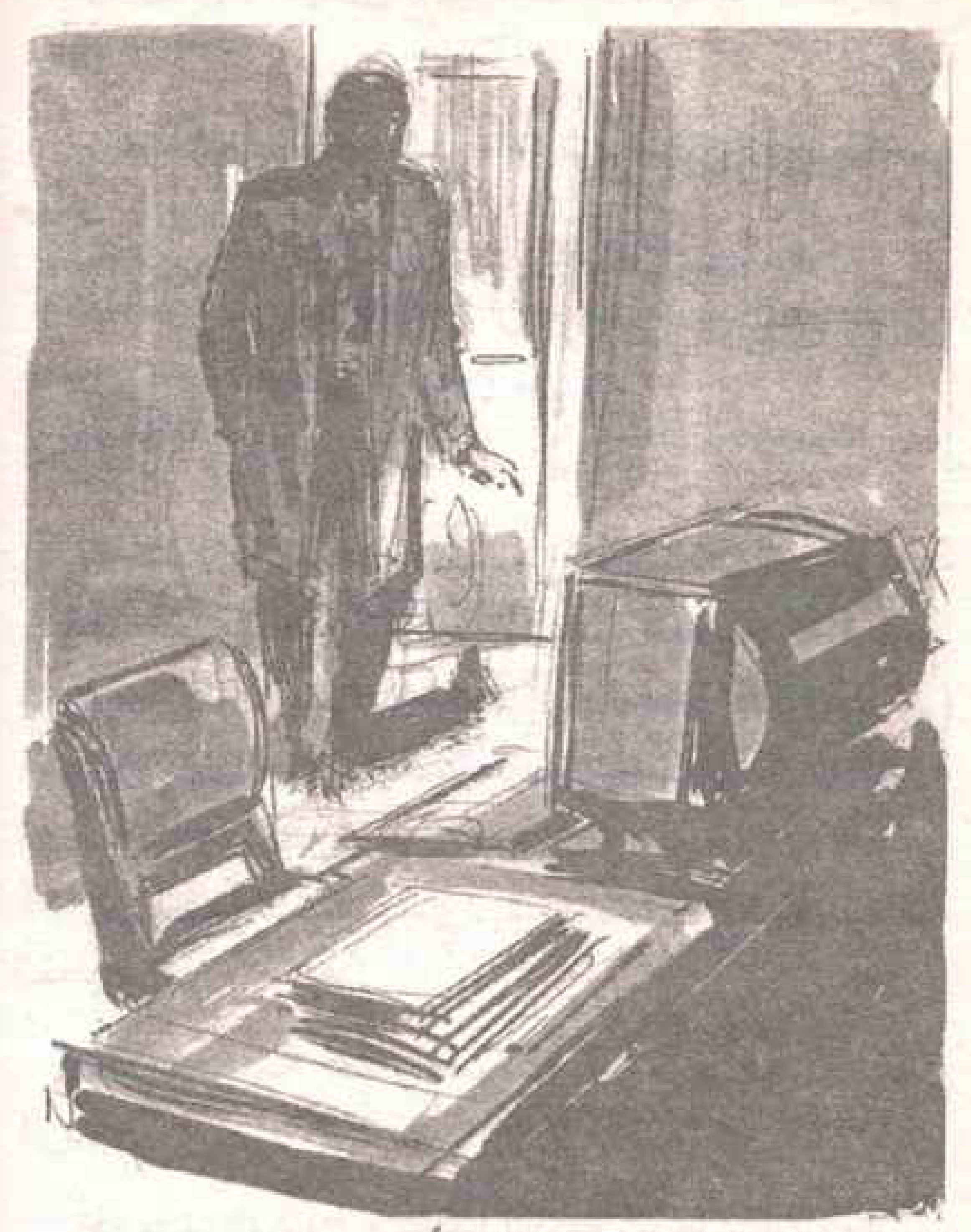
حسن .. لم يكن بهذه الحماقة طبعًا ، وما كان ليترك الجهاز مفتوحًا كقبور مصاصى الدماء ليلاً ..

هذا عائق حقيقى .. عائق مخيف ..

ضربت على المفاتيح الحروف RW 7654 فظهرت فى شكل ****** كما هى العادة ، وكانت إجابة الجهاز هى : الدخول غير مسموح به Access denied ..

جربت احتمالات أخرى مثل (ملاريا) و(كوزمو فارما) و ..

تبًا ! نصف ساعة ولم أصل إلى شىء ، والأسماك الكريهة تواصل سباحتها المملة أمام



وهكذا وجدت نفسى متسللاً إلى غرفة (شوماخر) .. هذه المرة بأمر المدير نفسه ..

عينى .. لا جدوى .. سأعود لأخبر (بارتلييه) أن المهمة مستحيلة ..

وحانت هنا نظرة إلى المكتب ..

كانت صورة زوجة (شوماخر) الحسناء ترمقنى فى سخرية ، وهى تعرف بالضبط ما أحاول القيام به ..

عيناها تقولان :

ـ « لا جدوى يا صبى .. إن زوجى أذكى منكم .. »

لا آمل أنّ هذا .. ولكن لنجرّب .. ماذا كان اسمها ؟

(هيلد جارد) .. هـ .. ى .. ل .. د .. ج .. ا .. ر .. د ..

وعلى الفور ظهرت الشاشة ، وعليها الأيقونات ، وكاد قلبى يتوقف انفعالاً .. فى الدقائق التالية قمت بنسخ كل الملفات التى شعرت بأنها مريبة ، على قرصين مرنين أحتفظ بهما فى جيبى .. ثم أغلقت النور وغادرت الغرفة ..

غريب أن يكون الجواب بهذه السهولة .. لكن ـ ببساطة ـ لم يكن أحد فى (سافارى) كلها يعرف اسم زوجة الرجل ، وقد عرفته أنا بصدفة محضة لابد أنه نسيها ..

* * *

بعد ربع ساعة :

هأنذا جالس مع (آرثر شيلبى) نفتح الملفات فى اهتمام .. كان هذا أجمل مما توقعت ، فكل الأسماء كانت هناك مع مفتاحها الكودى ، وكانت كل المعلومات عن سير كل حالة مدونًا بدقة غير عادية .. الجميل أنه كان يكتب ملاحظاته بالإنجليزية ، ولو استعمل الألمانية لما فهمنا شيئًا .. ولاضطررنا إلى طلب رأى أحد الألمان هنا ..

قام (شيلبى) بطباعة هذا الحشد من المستندات ، ثم قال وهو يضع الكومة فى مظروف :

ـ « إنك قمت بعمل جميل يا بنى .. نحن نعرف الآن مَنْ مِن المرضى تلقى العلاج فعلاً ، ومن تلقى

(البلاسيبو) .. ومن الثابت أن مرضى المجموعة الأخيرة تدهوروا أو ماتوا .. لو أثبتنا أن من تلقوا العلاج يحوى دمهم (الكلوروكين) ، ومن لم يتلقوه يحوى دمهم كمية عالية من الرصاص ، فإن مهمتنا قد انتهت .. »

ثم أمرنى بلهجة حازمة :

ـ « نريد عينات دم مرقمة من الجميع .. يحسن أن تضيف عينات بول أيضًا ، واتصل بـ (جيديون) كى يعدّ تقاريره عن أسباب وفاة من ماتوا .. »

لقد انحدرت الكرة الثلجية من فوق الجبل ..

ولسوف تستمر فى الانحدار بسرعة إلى أسفل ..

* * *

٨ ـ الشر يربح ..

كان الدكتور (ويليام ماجابو) طبيبًا إداريًا ، لكن صرامته وحنكته الإدارية واضحتان من خلف زجاج العوينات الغليظة التى يضعها ..

لقد خاض صراعات عديدة حتى وصل إلى هذا المنصب المرموق : وكيل وزارة الصحة الكاميرونية .. وواقع الحال يقول إن شاغل هذا المنصب هو تقريبًا وزير الصحة ذاته ..

كان مكتبه أنيقًا باذخًا واسعًا كساحة السباق ، ومن خلف زجاج النافذة كنت ترى (ياوندى) المدينة الجميلة المعاصرة ، وترى معهد (باستير) من بعيد ، الذى هو أحد معالم العاصمة الشهيرة .. جو يختلف كثيرًا عن جو الأدغال والسحرة الذى نعيش فيه ، حتى ليصعب عليك أن تصدق أن هذين الجوين موجودان فى بلد واحد ..

قدموا لنا عصير البرتقال البارد ، فشربناه مرحبين ..

كنت فى حاجة إلى بعض الترف وبعض الحركة ، بعد حياة (سافارى) المملة القاسية ، ولهذا كنت أسعد الموجودين بهذه الرحلة .. لقد طلب منى المدير أن أحزم حقيبتى لأننا ذاهبون إلى (ياوندى) غدًا ، حيث رتبت لنا مقابلة مع وكيل وزارة الصحة ..

كدت أثب فرحًا وأرقص كالقرود ..

والأجمل أننا أقمنا فى فندق (فكتوريا) الأنيق .. هناك سأكون قريبًا من (مورجان) وإن كنت لم ألقه بعد .. لهذا أجدت الاستمتاع بالمكيّف والحمام الدافئ وطبق الاستقبال التلفزيونى ، واتصلت بالوطن لأطمئن على أمى فعرفت أنها بخير .

وفى سرى شعرت بالامتنان لـ (كوزمو فارما) وخبرائها السفاحين النصابين ، فلولاهم لكنت الآن فى المختبر أتلقى توبيخ (هيلجا) العزيزة ..

* * *

بصوته الغليظ وفرنسيته العجيبة رحّب بنا د. (ويليام) ، وقال إنه سيفعل كل شىء ممكن للتأكد من حقيقة ما نقول ..

قال له (بارتلييه) وهو يمسح البرتقال عن شفتيه :

ـ « نحن شاكرون لسعادتكم هذا الاهتمام .. لقد جاءت وحدة (سافارى) إلى الكاميرون كى تحارب الأمراض ، لا لتزيد الطين بلّة .. »

قال د. (ماجابو) فى وقار :

ـ « إن الأوراق كلها لدينا ، ولسوف نحصل على العينات حالاً ، كما سنستدعى هذا الخبير الإحصائى .. قلتم لى ما اسمه ؟ »

ـ « (شوماخر) .. (هانز شوماخر) سعادتكم .. »

ـ « سيكون هنا ، وسيكون عليه أن يقدّم تفسيره .. »

انتهى البرتقال ، وكان معنى هذا أن المقابلة انتهت ، فنهضنا وزررنا ستراتنا ـ لقد أرغمونى على ارتداء البذلة ـ وهززنا رءوسنا شاكرين ..

* * *

لكن اللقاء الذى تمَّ بعد ثلاثة أيام كان عاصفًا بحق ..

لم يكن (شوماخر) وحده ولكن كان معه (ستيجوود) نفسه مدير المكتب العلمى ، بالإضافة إلى ثلاثة محامين مفترسين يسيل الزبد من أشداقهم ، وواضح من ثيابهم وحماسهم المجنون مقدار الراتب الذى يحصلون عليه من الشركة ..

غاص (بارتلييه) فى بدانته ، وقد شعر بأن آخر أمل فى إصلاح الأمور سرًا قد انتهى .. لقد فسدت علاقته للأبد مع شركة (كوزمو فارما) ، ولن تعرض عليه دراسة مماثلة للأبد ..

الحق أننى أنا نفسى ارتجفت هلعًا لمواجهة هؤلاء الوحوش .. أنا صاحب الحق الصادق .. هؤلاء السادة قادرون على انتزاع ما يريدون ..

كان (ستيجوود) الأشيب الوقور هو أول المتكلمين .. قال :

ـ « نحن عاجزون عن فهم سبب هذا الاستدعاء سعادتكم .. إن دراستنا سليمة لها كل المعايير التى

التزمت بها شركتنا منذ إنشائها ، وهى الأمانة والدقة .. ثم إن وزارة الصحة تعرف بالدراسة ولديها بروتوكول كامل لها ، ولدينا نحن نفس البروتوكول موقعًا عليه من وزير الصحة نفسه .. »

قال (شيلبى) الذى لم يؤثر هؤلاء السادة فى ثباته :

ـ « كف عن الخطب يا (ستيجوود) ، فالسيد وكيل الوزارة يعرف كل ما تريد قوله ، وهو من سيتولى تحليل النتائج .. »

هنا قال أحد المحامين فى عصبية:

ـ « سيدى .. نحن نحتفظ بالحق فى رفع قضية تشهير ضد هؤلاء السادة .. إن الشركة تعرف بالتأكيد كيف تعاقب من يسىء إليها .. »

وكنت أعرف أنهم قادرون على ذلك ..

قال وكيل الوزارة وهو يتفحص الملفات أمامه :

ـ « الحقيقة أن الدراسة مصممة جيدًا ، ومناسبة لآداب المهنة ، وإننى لأميل إلى إعفاء الشركة من أية اتهامات فى هذا الصدد ..

« النقطة الأخرى أكثر أهمية .. لقد وصلتني نتائج تحليل عينات الدكتور (شوماخر) ، وهي العينات الباقية من الدراسة .. »

ونظر لنا بعينيه الصارمتين المنتفختين ، وابتسم .. وأردف :

ـ « الكبسولات تحوى مادتين لا أكثر : السكر .. ومادة مجهولة من مشتقات (الكينولين) يغلب الظنّ أنها هى المركب المسمى RW 7654 ! »

هبط الخبر علينا كالصاعقة .. ونظرت إلى (بارتلييه) الذى احتقن وجهه ، فخفت أن يصاب بالفالج .. كان أكثر من سواه يعرف معنى هذا الذى يسمعه ..

صاح (آرثر شيلبى) محنقًا :

ـ « لحظة سعادتكم ! هناك تقارير التشريح الخاصة بنا ، والتى تؤكد أن كل من ماتوا كانوا من المجموعة الضابطة ـ مجموعة (البلاسيبو) ـ وكلهم تلقى العلاج بالسكر المزعوم .. كانت فى أجسادهم نسبة عالية من الرصاص ، بينما نسبة الكلوروكين عالية فى دماء من برئوا من المرض .. »

هبّ أحد المحامين صائحًا وعلى وجهه ابتسامة شريرة :

ـ « أعترض سعادتكم .. لم يتم هذا التشريح ولا التحليل فى معمل قانونى ، أو بمعرفة وزارة الصحة .. لقد تم إعداد كل شىء فى وحدة (سافارى) .. التهمة وإثباتها .. وهذا ليس عدلاً ! » .

للمرة الثانية ابتسم د. (ماجابو) .. وهو مجهود عنيف يوشك على تمزيق وجهه الأسود الصارم المتصلب ، وقال :

ـ « ليست هذه محكمة يا سادة ، ولست القاضى .. »

ـ « نحن نعتبركم كذلك ، وقولكم هو الفصل فى الموضوع .. »

وقال (ستيجوود) فى رزانة :

ـ « لو كان هناك شك ، يمكنكم أن تأمروا بإعادة التشريح هنا فى (ياوندى) .. »

قال د. (ماجابو) وهو يطرق بمؤخرة قلمه على المكتب :

ـ « لا داعى لهذا .. أعتقد أن الموتى قد دفنوا ، ومن العسير إقناع الأهالى المحليين بنبش قبور موتاهم .. »

قررت أن أتكلم .. فتنحنحت وقلت :

ـ « سيدى .. هم يخشون أن نكون تلاعبنا بالنتائج ، ونحن نتهمهم بالتلاعب بالكبسولات .. لقد كانوا يملكون الوقت كله لعمل هذا .. »

شعرت بيد (بارتلييه) المكتنزة الندية توضع على فخذى .. كان يريدنى أن أخرس ولا أزيد الأمور تعقيدًا .. وبدا لى أنه على حق إلى حدٍّ ما ..

كانت فرصة ذهبية لثالث المحامين الذى قال فى رصانة :

ـ « المزيد من الاتهامات لشركة لها سمعتها .. لكن قاعة المحكمة ستكون هى الفيصل بيننا .. إننا لم نتفق على مبلغ التعويض بعد ، لكنه سيكون فادحًا على الأرجح ، وإننى لأتمنى أن تكون الوحدة ثرية ! »

هنا قال د. (ماجابو) وهو ينظر إلى (بارتلييه) :

ـ « قد لا يحدث هذا .. ربما لو تفضل البروفسور بسحب اتهاماته .. »

هنا أضاف (شوماخر) وهو يجفف عرقه الغزير :

ـ « .. بل ويجب أن يوقع على شهادته بخصوص سلامة التجربة ! »

نظر (ماجابو) إلى (بارتلييه) ، ومناشدًا سأله :

ـ « ماذا تقول ؟ »

ثم لم ينتظر إجابة ، وقال لـ (ستيجوود) :

ـ « هل تضمنون له أن الشركة لن تتخذ إجراءات قانونية لو لم يوقّع ؟ »

بوقاره العتيد قال (ستيجوود) :

ـ « يجب أن أعترف هنا سعادتكم بأننى لست مدير الشركة ولا صاحب القدر الأكبر من أسهمها .. أنا مجرد مدير مكتب علمى ، ولا بد لى من مناقشة

الأمر مع رؤسائى .. ربما يصرون على رؤية الدماء ، وربما يكتفون بهذا .. »

قال د. (ماجابو) بلهجة حازمة تدعو للإسراع :

ـ « هل معك الخطاب يا بروفسور (بارتلييه) ؟ »

بيد مرتجفة مدّ (بارتلييه) أنامله فى جيب بذلته ، وأخرج ورقة مطوية .. الآن أرى الشرايين فى مخه تتمدد .. بعد ثوان ستنفجر لتلوث المكان ..

ـ « وقعه لو سمحت .. »

أخرج قلمه ، ومهر الخطاب بتوقيعه ، وتذكرت على الفور مشهد (شكرى سرحان) فى فيلم (الزوجة الثانية) وهو يطلق زوجته ثلاثًا تحت تهديد السلاح ..

ـ « الآن البروفسور (شيلبى) .. »

امتقع وجه العلامة الأمريكى ، لكنه احتفظ بوقاره وتناول الخطاب ووقّعه ..

قال (شوماخر) فى عصبية :

ـ « ما زلنا بحاجة إلى توقيع هذا الشاب .. »

قلت فى عناد ، وأنا موشك على الانفجار وتوجيه ركلة إلى بطنه :

ـ « لن أوقع .. »

نظر (ستيجوود) إلى (بارتلييه) وتساءل :

ـ « وما رأى المدير فى هذا ؟ »

قلت بنفس العناد ، وقد راحت عضلة ما تتحرك تلقائيًا فى خدى الأيسر :

ـ « يستطيع المدير أن يطردنى ، لكنى لن أوقّع .. »

★ ★ ★

سيكون لى جناحان ..

سيطردوننى ، ولسوف أفرد جناحىّ نحو الشمال الشرقى .. أين هى (شبرا) ؟ سأعرفها دون جهد من عل .. إن لم يكن بالإبصار فبالرائحة .. رائحة شعر أمى التى تذكرك بشىء ما من الطفولة ..

رائحة الدهان على حائط غرفتى .. رائحة الثياب التى جففتها الشمس فى شرفة دارنا .. رائحة الوطن ..

* * *

ـ « لن أوقّع ... »

هنا قال (ستيجوود) لينهى هذا الموقف المتوتر :

ـ « أعتقد يا سادة أن هذين التوقيعين يكفيان .. ومن نافلة القول أن أؤكد أن أية إساءة للشركة لدى الصحف ، ستقابل بأقصى عقاب ممكن .. لقد قدمت شركتنا دراسة أمنية لعقار جيد .. وليس من حق أى كان أن يتهمنا بهذه التهم المشينة .. »

هنا ضمّ د. (ماجابو) كفيه إلى بعضهما كأنه يصلى صلاة هندوسية ، وقال :

ـ « أما وقد عمّ السلام الجميع ، فإننى لأرجوكم التصافى .. ولننته هذا الاجتماع .. »

نهض (ستيجوود) ورجاله من القراصنة ..

كلهم يزرّر سترته ، ويتأكد من أنه استعاد الهاتف الخلوى الذى وضعه أمامه على المنضدة ، ويحشو حقيبته بالأوراق ..

ثم هز رأسه فى كياسة :

ـ « سيدى وكيل الوزارة .. »

وغادر الغرفة ، وتبعه الأوغاد الآخرون ..

* * *



٩ ـ ما بعد الهزيمة ..

ـ « وماذا فعل (بارتلييه) ؟ » .

ـ « لا شىء .. لقد تحطم كبرياؤه ، وشعر بأن رجولته قد امتحنت ورسبت فى الامتحان .. إنه يجمع الآن حقائبه ، وهو راغب فى العودة إلى (سافارى) حالاً ..

« الحق أننى لا ألومه على شىء .. فهو يحمل على عاتقه مسئولية الوحدة كلها ، ويرى الصورة شاملة ، ويعرف أنه سيخسر ما هو أكثر من منصبه .. »

« أما أنا ، فلا ألعب دور الفارس النبيل الشامخ .. يسهل علىَّ التظاهر بذلك ، لكنى فى الحقيقة بلا أعباء ولا مسئوليات .. أنا مسئول عن نفسى تمامًا .. ولو طردت اليوم لعدت إلى مصر ، ونسيت كل شىء عن (سافارى) .. »

ـ « (بارتلييه) شجرة سامقة وأنت ـ واسمح لى ـ عشبة صغيرة .. والأنواء تقتلع الأشجار بينما تظل الأعشاب كما هى .. عندما حدثت الثورة الفرنسية ؛ طارت أعناق علية القوم ، بينما لم يحفل أحد بالمتسولين .. هؤلاء لم تؤثر فيهم الثورة سلبًا ولا إيجابًا .. »

ـ « هذا هو ما عنيته .. ليس من يقبل دائمًا جبانًا خنوعًا ، وليس من يرفض دائمًا بطلاً باسلاً .. »

* * *

كنت جالسًا مع الدكتور (مورجان) فى (لوبى) الفندق ، نشرب الشاى ونتكلم عن كل هذا الذى مررت به ..

كان (مورجان) قصير القامة مكتنزًا ، له عينان صافيتان صادقتان ، وله طريقة ودود توحى بالرحمة ..

لقد وجدته أخيرًا ، لأنه لم يكن يبقى بغرفته إلا لمامًا ، وقد وجدته فى آخر ساعتين لى فى (ياوندى) ، ودارت بيننا محادثة شائقة ..

سألنى وهو ينظر فى ساعته :

ـ « سيعود المدير الآن إلى (سافارى) ؟ » .

ابتسمت فى مرارة :

ـ « لقد حان الوقت .. لابد أن العاملين هناك يعدّون الدقائق بانتظاره .. لأن د. (باركر) ـ بالتأكيد ـ قد فصل نصف العاملين ، وأطاح بأعناق النصف الباقى .. »

ـ « إلى هذا الحدّ ؟ » .

ـ « وأكثر .. إن رسالته فى الحياة هى أن يحيلها جحيمًا .. »

ثم بعد هنيهة سألته :

ـ « بصراحة .. هل تعتقد أن وكيل الوزارة هنا مرتش ؟ » .

ضحك كثيرًا .. فهو لم يسمع أحدًا يتكلم بهذه الصراحة ، وقال :

ـ « د. (ماجابو) ؟ بالطبع لا .. إنه ليس متواطئًا على الإطلاق ، وهو شخص صارم صلب من النوع الذى يصعب إفساده ، لكنه يعتقد أنكم حمقى لا أكثر .. »

ـ « ولماذا لم يصدّق كلامنا ؟ »

ـ « لأن الشركة قدمت أوراقًا منظمة متكاملة .. قدمت ما هو جدير بالمحترفين ، بينما أنتم تكلمتم بحماس الهواة واندفاعهم .. وهو رجل مشغول .. لا يجد لديه من الوقت ما يكفى للإصغاء للثوار الصغار .. »

ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال :

ـ « كنت فى مكتبه أمس ! »

اتسعت عيناى دهشة .. وسألته :

ـ « لماذا ؟ »

قال فى كبرياء ضاحك :

ـ « لأننى مستشار صيدلى لدى منظمة الصحة العالمية .. هل نسيت هذا ؟ وهو أول من يعرف أننى فى (ياوندى) ..

« كان يريد معرفة رأيى فى الموضوع ، وعرض علىّ الأوراق كلها .. »

ملت عبر المائدة نحوه وتساءلت :

ـ « وهل صارحته برأيك ؟ »

ابتسم ، وراح يرمق المائدة المجاورة التى احتشد عليها مجموعة من السياح الأمريكيين ، يتبادلون الدعابات بصوت عال ..

بعد صمت طال ، قال :

ـ « لا .. لم أفعل .. لأن الأوراق التى عرضها علىّ كانت محترمة وبلا ثغرات .. وأنا مسئول عن كل حرف أقوله ، فلن ألقى كلامًا على عواهنه .. »

تنهدت فى خيبة أمل ، ولسان حالى يقول : (جبتك يا عبد المعين تعيننى) ..

قال محاولاً تفسير موقفه :

ـ « النتائج مصنفة بعناية .. موافقة الوزارة .. موافقات المرضى على الدراسة .. تركيب العقار الكيميائى .. كل شىء .. »

سألته فى ضيق :

ـ « وهل هذا كاف للشركة كى تبدأ طرح العقار فى السوق ؟ »

قال وعيناه لا تبرحان المائدة المجاورة (وهى طريقة لتحاشى نظراتى) :

ـ « بالطبع لا .. لا بد أنهم يجرون عشر دراسات مماثلة فى أرجاء العالم ، وبعد قليل ـ مع بعض التلفيق وبعض الرشاوى ـ ستكون لديهم عشر أوراق علمية تؤكد فعالية الدواء ، ولسوف تنشر هذه فى دوريات الدواء العالمية .. بعد هذا يأتى الجزء العسير من الموضوع ، وهو موافقة الـ FDA .. لكن شركة بهذا الحجم لن تعجز عن انتزاع الموافقة .. بعدها يطرح الدواء فى الأسواق مع دعاية هائلة .. »

ـ « لن يلبث الناس أن يكتشفوا أنه غير مفيد أو مضرّ .. »

ـ « ربما لكن أحدًا لن يلاحظ إلا بعد عامين أو ثلاثة .. عندها تكون الشركة قد حققت المليارات .. ثم إن الدواء لن يختفى تمامًا بعدها من دول العالم الثالث .. إن (الثاليدومايد) ـ كما قلت فى محاضرتى ـ ما زال يُباع ويُشترى ، وهو دواء لم يعد أحد يناقش خطره الجسيم .. »

ساد الصمت ..

وشعرت بأننى نملة تقف بين ساقى عملاق ، وتصرخ بصوت لا يسمعه أحد : أنا مثلك تمامًا ! أنا كائن حى أملك نفس حقوقك !

ثم فجأة تذكرت شيئًا ، فسألته :

ـ « لحظة .. هل قلت إن موافقات المرضى على الدراسة موجودة عند وكيل الوزارة ؟ »

* * *

لم يفهم معنى سؤالى فكررته ..

قال فى حيرة :

ـ « طبعًا .. لا يمكنك إجراء دراسة من دون موافقة مكتوبة Written consent من المريض على أن يكون موضوع تجربة .. هذه من البديهيات .. »

قلت فى غيظ :

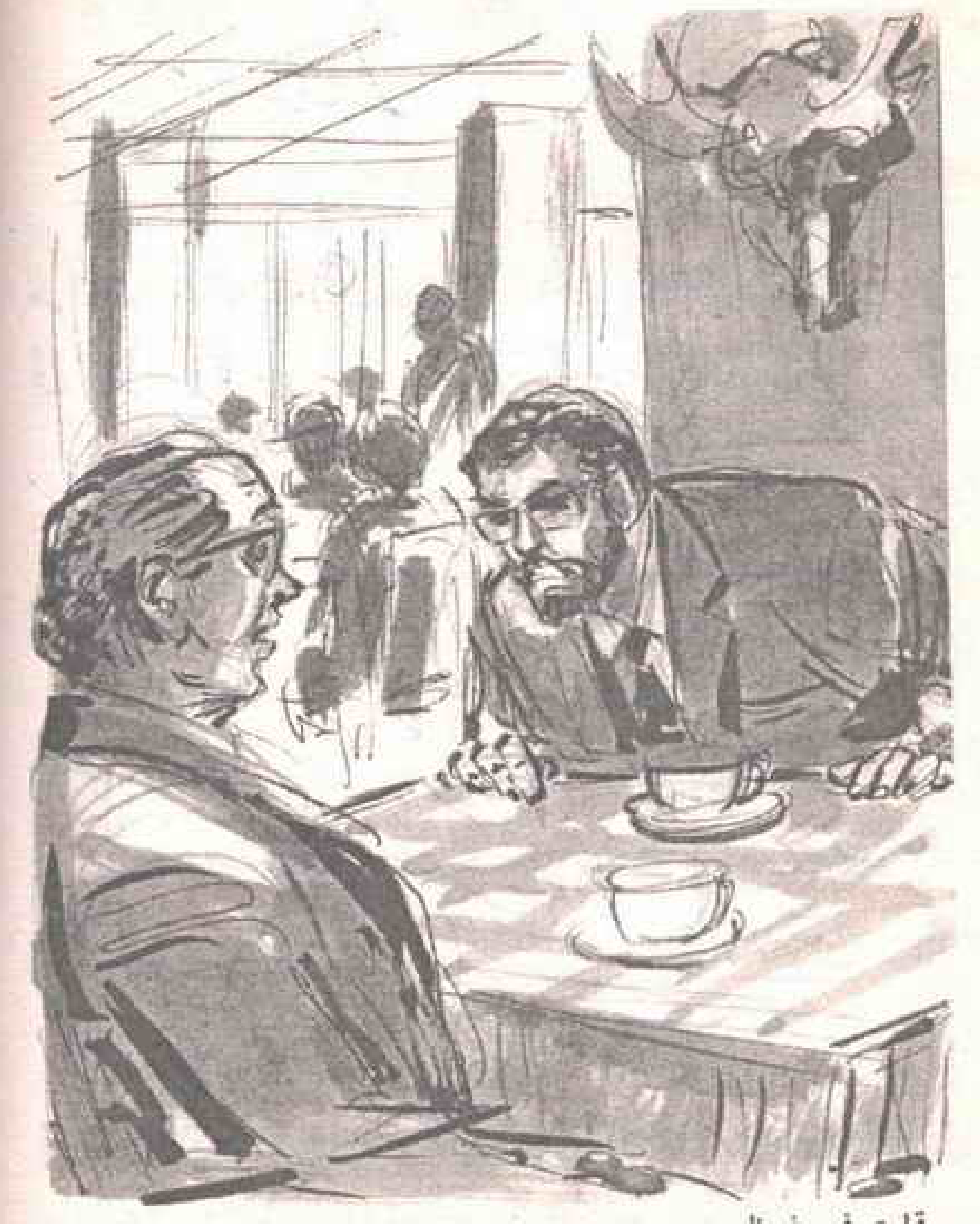
ـ « وماذا لو قلت لك إنه لم تؤخذ موافقة واحدة ؟! »

نزع عويناته وتأمل وجهى بعينيه الصافيتين وقال :

ـ « عم تتكلم يا بنى ؟ أنا رأيت الموافقات كلها .. »

ازددت غيظًا وقلت :

ـ « موافقة ممن ؟ هؤلاء المرضى من القرى المحيطة بـ (أنجا وانديرى) .. أكثرهم من قبائل (البانتو) الذين لا يعرفون الكتابة ، ويأكلون عجين (الكاسافا) ، ويتداوون عند ساحر القبيلة ..



قلت فى غيظ :
ـ « وماذا لو قلت لك إنه لم تؤخذ موافقة واحدة ؟! » ..

بالطبع لم تؤخذ موافقة واحدة .. لقد سيق هؤلاء إلى التجربة كما تسوق أنت الفئران فى معملك .. »

اتسعت عيناه ، وغمغم :

ـ « لكن هذا .. خطير ! »

قلت وأنا أنهض :

ـ « حتى هذه اللحظة لم تفعل (كوزمو فارما) شيئًا غير خطير .. لكنى ـ فى هذه المرة ـ ضبطتهم ملوثى الأيدى .. »

ـ « وماذا تنوى عمله ؟ »

ـ « سأخبرك فيما بعد .. »

* * *

لماذا لم أخبره ؟

لأننى صرت فريسة (البارانويا) تمامًا ، ولم أعد أثق بأحد حتى خالتى نفسها ..

من أدرانى أنه لا يعمل مع هؤلاء القوم .. مستشارًا صيدليًا مثلاً براتب ملىء بالأصفار إلى يمين الواحد ؟

صحيح أنه ساعدنى كثيرًا ، لكنى سأعطى نفسى مزية الشك ..

فلأنتظر حتى أعود إلى (سافارى) ..

وعندها ....

* * *

١٠ - لعبة خطرة ..

ما إن وصلت إلى (سافارى) ، حتى هرعت إلى قسم الحاسب حيث كانت (جرترود) الزنجية المرحة تشرب القهوة ، وتحلّ كلمات متقاطعة فى جريدة إنجليزية ما ..

طلبت منها بيانات ثلاثة أو أربعة من المصابين بالملاريا ، الذين تكلمت عنهم تلك الدراسة ، فضغطت ببراعة بعض الأزرار ، وسرعان ما ظهرت على الشاشة بعض البيانات .. اسم المريض .. سنه .. عنوانه .. رقم التذكرة .. الخ ..

كان ما أريده هو العنوان .. وكما توقعت كانت العناوين مبهمة على غرار (أنجا وانديرى) .. بحيث لا تفيد أحدًا ..

شكرتها كثيرًا كالعادة ، وغادرت المكان باحثًا عن (بودرجا) العزيز ..

* * *

دخلت عنبر الأمراض المعدية حيث كان مرضاى .. كان أكثرهم قد عاد إلى جرعات (الكينين) و(الكلوروكين) القديمة الموثوق بها ، وقد تحسن للغاية ..

دنوت من أولهم ، وهو رجل من البانتو فى الأربعين من عمره ، وطلبت من (بودرجا) أن يسأله عن عنوانه ..

نظر لى (بودرجا) فى عدم فهم ، ثم مال على الرجل وراح يرطن معه بلغة (البانتويد) العجيبة ، ثم رفع رأسه لى وقال :

ـ « يقول إنه من (أنجا واتديرى) .. »

صعد الدم إلى رأسى ، وقلت بعصبية :

ـ « أعرف أنه من ..... أريد عنوانه بدقة .. العنوان الذى يمكن أن أزوره فيه .. »

من جديد عادت المحادثة الطويلة ، تتخللها ضحكات تكشف عن الأسنان البيضاء اللامعة .. إنهما ينعمان بوقتهما بينما أغلى أنا غيظًا ..

فى النهاية قال (بودرجا) وهو يضحك :

ـ « لا أظن أن عنوانًا بهذا الشكل سيفيدك يا دكتور .. »

ـ « لكنى أريد معرفته .. »

قال فى صبر :

ـ « إن الرجل من قرية (نورج) .. يقول إن الطريقة المثلى للعثور عليه ، هى السؤال عن العجوز (ماندوكا) صاحب البقرة العوراء .. (ماندوكا) سيخبرك بمكان كوخ (بومبالو) ، وهو هذا المريض .. »

كنت أدون بسرعة هذه البيانات أمام عينى (بودرجا) المندهشتين .. ثم قلت له :

ـ « قل له إنه تحسن ، ويمكنه الخروج والعودة لقريته .. »

ـ « لكن يا دكتور ...... »

ـ « أنا الطبيب المسئول عن هذه الحالات .. هذه تعليمات المدير ، فلا تجادلْ .. »

هزّ رأسه مستسلمًا ، وعاد يتكلم مع الرجل حتى أوشكت على أن أموت بالشيخوخة .. ثم تركنا الرجل واتجهنا إلى فراش آخر ، كان صاحبه ـ لحسن الحظّ ـ يجيد بعض الفرنسية ..

وهكذا ..

كانت عملية شاقة مرهقة ، لكنى تمكنت من أخذ عناوين دقيقة لعشرة مرضى ، وهى عملية استغرقت ساعتين .. وكلما أخذت عنوان مريض ؛ سمحت له بالخروج ..

سيكون علىّ أن أكتب كل هذا فى تذاكرهم ..

أخيرًا صار من حقى أن أنام ..

فأنا لم أستبدل ثيابى منذ الصباح ، وبعد رحلتى الشاقة من (ياوندى) ..

* * *

فى الصباح اتجهت إلى مكتب البريد ، فأنا لا أريد استعمال أجهزة (سافارى) .. أرسلت (الفاكس) الذى كتبته ليلاً إلى وكيل وزارة الصحة الكاميرونية ، وقلت فيه :

« سيدى ..

« أعرف أننا نسبب لك إزعاجًا مستمرًا ، لكنى أعرف كذلك أنك تكره أن ترى من يعبثون بحياة المواطنين الأبرياء ، وقد نجوا بفعلتهم .

« لقد وجدت خيطًا آخر يمكن مهاجمة الشركة به ، وهذا الخيط يتمثل فى حقيقة أن أحدًا ممن أجريت عليه التجربة ، لم يعط موافقته المكتوبة على إجرائها ، وأنتم تعرفون خيرًا منى أن أية تجربة لا تؤخذ قبلها موافقة مكتوبة Written consent ممن ستجرى عليه ؛ هى تجربة تخالف آداب المهنة ، ويمكن هدمها من أساسها بل ـ ربما ـ مجازاة من أجراها ..

« أعرف أن لديكم موافقات مكتوبة قدمها لكم مندوب الشركة ، وأنا أؤكد أنها مزورة .. لم يؤخذ رأى واحد من المرضى قبل إجراء التجربة ..

« هكذا نجد أمامنا تهمة ثانية غير مخالفة آداب المهنة وبروتوكول التجارب ؛ هى تهمة التزوير .. محاولة خداع الحكومة نفسها ..

« إن الدليل على هذا بسيط جدًا .. يمكن للحكومة ـ خلال ساعتين ـ أن تجرى تحقيقًا مع كل من وقّع بموافقته ..لتتأكد من أنه لم يوقع شيئًا ..

« ولما كنت أتوقع أن هناك من سيبحث عن هؤلاء القوم ليجعلهم يشهدون زورًا ، سواء بالتهديد أو بالرشوة ؛ فإننى حرصت على أن يعود كل منهم إلى قريته ؛ حيث لايعرف عنوانه سواى أنا ، وسوف أقدم العناوين بمجرد أن تطلب منى الحكومة هذا ..

« صحيح أنه يمكن الاهتداء إليهم عن طريق العناوين الموجودة فى (سافارى) ، لكنى تأكدت من أن هذه الأخيرة غير دقيقة وعامة جدًا ..

« أرجو سرعة الردّ علىّ أو الاتصال بى .

د. (علاء عبد العظيم)

طبيب مقيم بوحدة (سافارى) »

وحين اختفت الورقة فى جهاز الفاكس لتخرج من الناحية الأخرى ، لم أدرك أننى أعلنت ـ منفردًا ـ حربًا شعواء على شركة عملاقة مفترسة ..

أتوقع أن أتلقى اتصالاً قبل الظهر ، حين تقدم السكرتارية للرجل مجموعة الفاكسات التى تحتاج إلى رأيه ...

هكذا يطلب منى التوجه إلى (ياوندى) وأزيح عن ضميرى ثقلاً لا بأس به ..

* * *

لكن الظهر جاء والعصر جاء ، ثم بدأ الليل الإفريقى يتمطى ليبدأ وردية المساء ، ولما أتلق أية إشارة من (ياوندى) ..

ثمة احتمال قوى أنه لم يتلق الفاكس بعد ، ولو تلقاه وتجاهله .. عندئذ ؟ لا أدرى .. سيكون موقفى غاية فى السوء والاضطراب ..

★ ★ ★

« (ماجابو) ليس متواطئًا على الإطلاق .. وهو شخص صارم صلب من النوع الذى يصعب إفساده .. لكنه يعتقد أنكم حمقى لا أكثر .. »

★ ★ ★

عند العاشرة مساءً ؛ كان القلق قد بلغ بى كل مبلغ ..

صرت كأب قلق ، يقف خارج غرفة التوليد ، ولا يعرف ما يفعل بنفسه .. وبدا لى أن الانتظار يومًا أو يومين أو أسبوعًا بهذه الطريقة ، هو جحيم لا شك فيه ..

ولما كنت قد أنهيت عملى ؛ فإننى هرعت مغادرًا الوحدة إلى أقرب مكتب اتصال .. وطلبت فندق (فكتوريا) فى (ياوندى) ، وسألت عن البروفسور (مورجان) ..

كنت أعلم أننى واجده ، لأن الوقت متأخر الآن ..

أخيرًا جاء صوته عبر الخطوط المشحونة بالضوضاء ، يسألنى عما هنالك ..

حكيت له القصة كاملة طالبًا رأيه .. هنا تبدّل صوته إلى الغضب ، وزالت منه كل مودة :

ـ « جحش ! يا لك من جحش ! »

ولم أدر ما أقوله أمام هذه الوقاحة التى لم أتوقعها من امرئ مهذب منه ..

ـ « ترسلها بالفاكس ؟ ما أغباك ! هذه أشياء لا تقال إلا مباشرة أو عبر الهاتف إذا تأكدنا من أنه غيرَ مراقب ! »

قلت بصوت مبحوح :

ـ « هل تعتقد أن ..... ؟ »

ـ « لا أعتقد بل أنا متأكد .. طبعًا يهم الشركة أن تعرف فحوى كل خطاب وكل فاكس يصل لمكتب وكيل الوزارة الآن .. ولا يجب أن تكون عبقريًا لتعرف أن مكتبه مُختَرَق .. هذا الفاكس لم يصل له قطعًا ! » .

جففت قطرات العرق بكمى ، وعدت أسأل :

ـ « والعمل ؟ »

قال فى اشمئزاز :

ـ « العمل أن تأتى إلى هنا (ياوندى) مع أوراقك ، ولسوف يرتب لك رجال الصحة العالمية لقاءً مع وكيل الوزارة أو الوزير .. ولكن كن حذرًا .. »

ـ « سأكون .. شكرًا يا بروفسور .. »

أنا جحش ؟ ربما .. لو وقع الفاكس فى أيدى (ستيجوود) وعصابته ، فأى لقب آخر أنا جدير به غير جحش ؟

غادرت شركة الاتصال ، وملأت رئتى برائحة الليل الإفريقى ..

علىّ الآن أن أقابل (بارتلييه) لأخبره بما أنتويه ..

* * *

كان جالسًا فى مكتبه يراجع بعض التقارير .. إنها الحادية عشر مساءً ، لكن هذا الرجل يعشق (سافارى) بحق ، ثم إنه يتمتع بقصور ذاتى قوى .. متى جلس ظل جالسًا للأبد ، ومتى وقف ظل واقفًا للأبد .. لا بد أنه لم يجد بعد مقدار الطاقة اللازم للنهوض والعودة إلى داره ..

حين رآنى امتقع وجهه . لابد أننى ما زلت أذكره بالخزى .. باضطراره إلى شهادة الزور كى لا تفلس وحدته ..

جلست دون استئذان ، وقلت له :

ـ « أريد أن تسمح لى غدًا بالذهاب إلى (ياوندى) .. »

ـ « والسبب ؟ »

حكيت له القصة كاملة ، وأنهيتها قائلاً :

ـ « كما ترى يا سيدى ، ما زال بوسعنا أن نهدم الدراسة ، وأن نحافظ على نقاء ضمائرنا أمام أنفسنا .. »

نظر لى مفكرًا ، ثم قال :

ـ « هل قمت بإخراج مرضى الملاريا من عنابرك ؟ »

ـ « عشرة منهم ، وخمسة عند (نظير) .. فقط هؤلاء تحسنوا إلى درجة تسمح بالخروج .. »

ـ « وهل أنت واثق من أنهم سيشهدون ضد (شوماخر) ؟ »

ـ « الأمر يتوقف على من يسألهم أولاً .. لو كنا نحن فسيشهدون ضده ، ولو كان هو فلسوف ينجح فى تغيير أقوالهم .. لو أن كل مريض من هؤلاء حصل على ألف دولار ، فلن ينجح رئيس الدولة نفسه فى جعله يعترف ، وهذا لن يكلف الشركة سوى خمسة عشر ألفًا ، بينما هى تلعب بالمليارات .. »

فكر قليلاً ، ثم تنهد مستسلمًا وقال :

ـ « ليكن .. سنأخذ إجازة غدًا ، وسيقوم سائق بتوصيلك إلى العاصمة .. لكن تذكر قاعدة (قائد وجندى) .. نحن لم نرسلك .. لم نطلب منك شيئًا .. تصرف على مسئوليتك الخاصة .. فإن فشلت كان الخطأ خطأك .. »

ـ « وإن نجحت كان هذا بسبب توجيهاتكم السديدة .. »

ـ « لقد فهمتنى .. أنت لست غبيًا برغم كل شىء .. »

* * *



١١ ـ إنهم أرسلوه .. !

عدت لغرفتى ، وقررت أن أصلى وأنام حالاً .. أعدكم أننى سأنام كالقتيل ؛ لأن يومًا عصيبًا ينتظرنى غدًا فى (ياوندى) ..

فتحت الباب ، وأضأت النور و.....

لم أستطع كتمان صرخة الهلع التى انبعثت منى ..

* * *

« جحش ! يا لك من جحش ! »

* * *

إذ بدت لى الغرفة كأن ثورًا جامحًا كان حبيسًا فيها ..

كل الكتب مبعثرة على الأرض ، وحشية الفراش مقلوبة ، وخزانة الثياب تقيأت أحشاءها ، ولم يكن الحمام أحسن حالاً .. حتى ثيابى الداخلية المستعملة المكوَّمة فى سلة الغسيل تم تفتيشها بعناية ..

كانت بعض الأوراق التى أكتب فيها خواطرى بالعربية قد اختفت ، بينما يبدو أن كل ما هو مكتوب بالإنجليزية أو الفرنسية قد تم فحصه بدقة ..

الجواب سهل : إنهم يبحثون عن العناوين ، ولعلهم خافوا أن أكون دونتها بالعربية التى لا يفهمونها ، لذا أخذوا كل ورقة عليها كتابة عربية معهم ..

الآن أعرف بوضوح أن الفاكس لم يصل ، وأن الشركة تحركت سريعًا ..

إن أساليب شركات الأدوية فى العمل صارت غريبة بعض الشىء هذه الأيام ..

طبعًا هم حمقى .. لأن العناوين في المفكرة التى أدسها فى جيب المعطف ، ويعلم الله أننى لم أدرك مدى قيمتها إلا الآن ..

لكن يجب الآن أن أجد طريقة آمنة لتخبئة هذه العناوين ..

وخطرت لى فكرة لا بأس بها ..

* * *

يجب أن أغادر الوحدة حالاً ..

لن تمرّ هذه الليلة على خير ، ما داموا متحمسين إلى هذا الحدّ ..

* * *

« هؤلاء القوم لا يمزحون خاصة وهم يتعاملون مع مئات المليارات من الدولارات »

* * *

واتجهت إلى الهاتف الموجود خارج الغرفة ، وهو خاص بالطابق كله ، ونظرت حولى ثم طلبت مكتب المدير ..

لم يكن موجودًا ، ولا أعرف رقم هاتف منزله ، فهذا سرّ لا يعرفه سوى عشرة هنا من بينهم موظف (السويتش) وهذا لن يعطيه لى ولو ذبحته ..

طلبت (السويتش) ، وطلبت منه أن يتصل بالمرآب .. أريد سائقًا حالاً ..

وبعد ثوان جاء صوت إفريقى غليظ يسأل من المتكلم ..

- « أنا د. (علاء عبد العظيم) .. أريد أن تعدّ السيارة حالاً .. »

- « إلى أين يا دكتور ؟ »

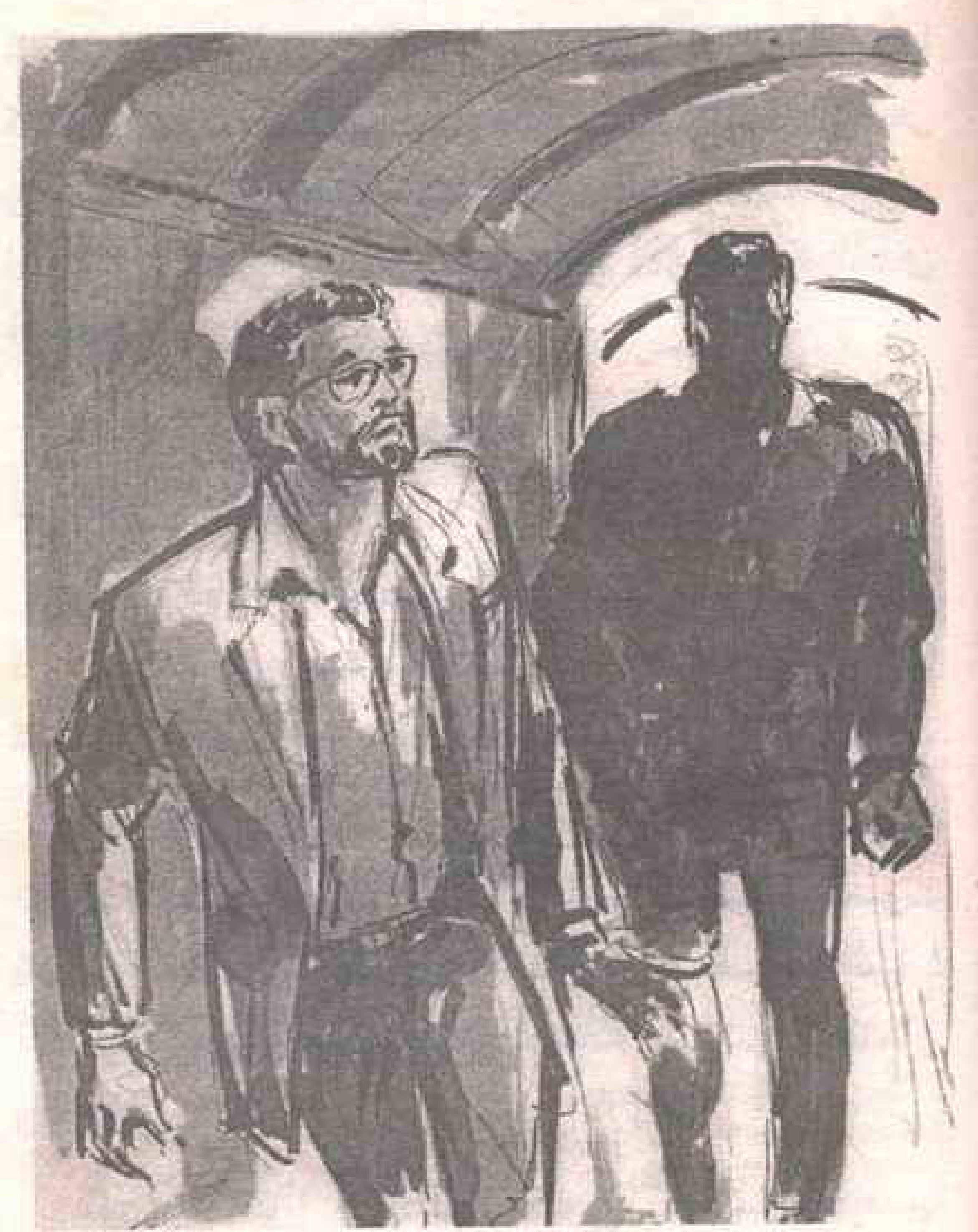
- « إلى (ياوندى) ! »

قال فى ضيق : إنه لا يستطيع التحرك ، ما لم يتلق أمرًا من المدير أو موقعًا منه ..

فقلت فى عصبية :

- « حسن .. يمكنك التقيد بالأوامر ، لكننى أريد ورقة موقعة منك ، تثبت أنك ترفض تنفيذ هذا الأمر .. إننى لا أتكلم على هواى ، ولكننى أنفذ أوامر المدير ، ويمكنك فى الصباح أن تشرح له وجهة نظرك عندما رفضت التنفيذ .. »

ساد الصمت برهة ، وأدركت أنه يزن المخاطر ضد المخاطر .. التفاعل الذى يسميه الأطباء النفسيون (تحاشى ضد تحاشى) .. القبول خطر والرفض خطر ..



وهرعت أركض عبر الممر متجهًا إلى الطابق السفلى ..

فى النهاية قال فى تردد :

ـ « إنها مسافة طويلة ، ومن الخطر بدء رحلة كهذه ليلاً .. »

ـ « لهذا تعمل سائقًا هنا .. لأنك لا تبالى بالمسافات الطويلة الخطرة .. »

بعد هنيهة أخرى غمغم :

ـ « قابلنى أمام المرآب بعد ربع ساعة .. لا بد لى من التأكد من سلامة السيارة .. »

وضعت السماعة وتنهدت ..

لو كان هذا السائق مصريًا لرفض التحرك على جثته .. لكن السذاجة الكاميرونية المحببة تفيد أحيانًا ..

وهرعت أركض عبر الممر متجهًا إلى الطابق السفلى ..

ـ « بست ! دكتور ! »

سمعت هذا النداء ، فنظرت للوراء ..

كان هناك رجل ضخم الجثة يرتدى (سويتر) من الجلد ، ويدسّ يديه فى جيبى السويتر ، وقد بدا كأنما جاء إلىّ فقابلنى بالصدفة .. كان أشقر الشعر بشرته شديدة الاحمرار كسرطان البحر المسلوق .. لست خبيرًا فى الأجناس لكنه على الأرجح هولندى أو ألمانى ..

أما الانطباع الأكثر أهمية الذى خرجت به ، فهو أن علىّ ألا أدنو منه ..

وهكذا لم أعره اهتمامًا ، ووثبت الدرجات التى تقودنى لأسفل حيث حديقة الوحدة التى تضيئها كشافات النيون الباردة المحايدة ..

رحت أركض حول حرف (L) الذى بنيت الوحدة على غراره ، ومن خلفى سمعت صوت الحذاء المطاطى يضرب الأرض فى جشع .. تبًّا ! ماذا يفعل رجال الأمن هنا بالضبط غير شرب الشاى والتدخين ؟

المرآب أخيرًا .. مظلم ومفتوح .. مكان مناسب جدًا للقتل .. لو أراد هذا القادم أن ينفرد بى

ويستنطقنى حتى يعرف اسم الداية التى قامت بتوليدى ، فالفرصة متاحة له ..

وسررت إذ وجدت السائق الزنجى ـ اسمه (جاوا) ـ يقوم بملء رادياتور السيارة بالماء .. نظرت خلفى فلم أر أحدًا يقفو أثرى ..

قلت له مسرعًا وأنا أستند إلى الغطاء المفتوح :

ـ « ماذا تنتظر ؟ هيا بنا ! » .

سألنى بغباء :

ـ « إلى (ياوندى) ؟ »

ـ « إلى (ياوندى) .. »

ـ « على مسئوليتك يا دكتور ؟ »

ـ « بل بأمر المدير نفسه ! »

وبعد ثانيتين كنت ألهث فى المقعد الجانبى ، وسط الظلام .. بينما صوت هدير المحرك الباعث على الاطمئنان يبدأ ..

وتحركت السيارة ..

* * *

الطريق الضيق المفرد المظلم ..

لا مصد للضوء إلا كشافات السيارة ، والأدهى أن مطرًا شحيحًا راح ينهمر ، مما جعل الزجاج ضبابيًّا تمامًا .. تتكسر عليه المرئيات ..

سألته وأنا أنظر إلى الوراء :

ـ « لم لم تشغل المساحات ؟ »

ـ « معطلة ! طلبنا إصلاحها ،لكن الدكتور (باركر) أبى ذلك .. قال إننا لا نفعل شيئًا إلا إصلاح المساحات طيلة اليوم ، وبعدها نتقاضى راتبًا ضخمًا ! »

تبًا لك يا (باركر) ! تطاردنى فى كل صوب حتى هنا ..

ستكون الرحلة إلى (ياوندى) ممتعة بحق ..

أشعل السائق لفافة تبغ ، وعرض علىّ واحدة فرفضت .. قال ضاحكًا :

ـ « المشكلة يا دكتور أننى أدخن ثلاث علب يوميًا ، وفى المساء لا أستطيع النوم من كثرة السعال .. »

قلت له فى غيظ :

ـ « إذن لا تدخن ثلاث علب يوميًا ! »

إنها تلك الاستشارات المجانية السخيفة التى تطارد الأطباء .. هو لا يتحمل الإقلاع عن التدخين ولا يحتمل السعال .. فماذا أفعل أنا ؟ كأن لدى حقنة سحرية أحقنه بها فيكف عن التدخين أو السعال ..

قال فى إصرار :

ـ « لا أستطيع أن .... أوووه .. ما هذا ؟ » .

وخفض من سرعة السيارة ومال على الزجاج الأمامى ليرى أفضل ..

لكنى كنت قد فهمت ..

هذه سيارة (فان) تقف بالعرض ..

لتسدّ الطريق الموحش المقفر ..

* * *

١٢ـ الفرار.. الفرار..!

ترجلنا من السيارة متوجسين ..

بالنسبة للسائق لم ير فى الموضوع إلا قطع طريق ، وهو يحدث كثيرًا ليلاً ، بينما كنت أتمنى أنا أن يكون الأمر كذلك ..

لكنهم لم يكونوا أفارقة ، ولم يكونوا قطاع طريق .. من النظرة الأولى تدرك أنهم مرتزقة من الذين تجدهم تحت كل حجر فى إفريقيا .. رجال يبيعون شراستهم وخبرتهم العسكرية السابقة لكل من يدفع الثمن ..

* * *

كانوا ثلاثة .. بالطبع كانوا أقوياء البنية وشرسين ..

وأدركت من المحادثات الجانبية أن اثنين منهم سوفييت .. المافيا الروسية التى انتشرت فى كل مكان بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ..

تقدموا منا فى ثقة كما يفعل الأوغاد ..

كان أولهم وقائدهم يحمل شيئًا يشبه السيف .. (سنجة) من التى يستعملونها عندنا فى مشاجرات الأزقة .. كان يشبه (وشق الإستبس) لو كنت تفهم ما أعنيه ..

قال بفرنسية سليمة لا يشوبها شىء :

ـ « أعتقد يا دكتور أن لديك فكرة عما نريده .. »

ونظرت لنطاقه حيث يتدلى هاتف محمول ، فعرفت أن المتسلل الذى كاد يلحق بى اتصل بهم من (سافارى) ليعدوا لنا هذا الكمين ..

قلت متغابيًا :

ـ « مال ؟ ليس معى الكثير منه ، لكن خذوه .. فقط لا تؤذونا ! »

بضيق قال وهو يلوح بالسيف :

ـ « بل أريد ما هو أثمن من المال .. »

ومدّ كفه لى ، فتنهدت مستسلمًا .. مددت يدى إلى جيب سترتى وأخرجت المفكرة الصغيرة .. المفكرة التى كنت أدوّن فيها بالعربية قصائد حب لـ (برنادت) ..

أمسكها وتفحصها ثم فرّها بين يديه ، وقال :

- « هل هذه لغة عربية ؟ »

- « نعم .. »

- « وهل المكتوب هو العناوين ؟ »

- « نعم .. »

نظر لى فى شك ، ثم نظر إلى السائق .. لقد وضعته بالتأكيد فى مأزق ..

صاح فى الرجلين السوفيتيين :

- « فتشا السيارة ! »

فانطلق هذان يبحثان فى كل صوب على ضوء الكشافات ..

أما الرجل فنظر لنا وقال آمرًا :

- « انزعا ثيابكما ! »

صاح السائق فى هلع :

- « هذا لن يكون .. إنها تمطر ، ولسوف نصاب بالتهاب رئوى .. وقد ..... »

- « انزعا ثيابكما ! »

ولم نر داعيًا للمقاومة ، فوقفنا تحت الأمطار نخلع ثيابنا .. حتى صار كل منا بثيابه الداخلية .. ولم يبدُ لنا أن الرجل متحمس إلى حدّ أن يطلب منا نزع هذه أيضًا ..

وفى الدقائق التالية كنا نرتجف .. بينما الأوغاد الثلاثة يفحصون كل زر وكل جيب ويقلبون كل حذاء .. وفى النهاية بدا أنهم اقتنعوا ..

دس الرجل المفكرة فى جيبه ، وقال موجهًا الكلام لرجليه دون أن تفارق عيناه وجهينا :

- « هيا بنا ! »

وسرعان ما دارت السيارة (الفان) نصف دورة حول نفسها ، وانطلقت لا تلوى على شىء فى اتجاه (ياوندى) ..

صاح السائق الأسود المسكين :

ـ « تبًا ! سنموت بالتهاب رئوى يا دكتور ! »

ـ « كف عن الشكوى يا أحمق وارتد ثيابك حالاً ! »

وهكذا دسسنا جسدينا فى الثياب .. كان الدفء رائعًا ، واحمرت أذنانا من فرط الدمَ الذى تدفق فيهما دون إنذار ..

وأخيرًا عدنا لركوب السيارة ..

أدار المحرك ، وقال وهو يرتجف انفعالاً لا بردًا هذه المرة :

ـ « هؤلاء لم يكونوا قطاع طريق .. ماذا كان فى هذه المفكرة يا دكتور ؟ »

ـ « قصائد شعر بالعربية .. لكنهم لا يعرفون هذا .. »

ـ « ولماذا لم يذبحونا بعد الانتهاء من الحصول عليها ؟ »

ـ « هل تلومهم على هذا ؟ »

لكنى خمنت السبب ..

أولاً : هم لا يريدون دماء ، بل هم يريدون أن أحتفظ بانطباع الأبله المولع بالشوشرة الذى أثرته حول نفسى .. وقتلى يجعلنى شهيدًا ..

ثانيًا : هم لا يضمنون محتوى المفكرة ، وما زال أمامهم خطر أن يحتاجوا إلىّ مرة أخرى لأرشدهم إلى العناوين الحقيقية ..

وهذا يعنى أن احتمالات وجود كمين آخر ما زالت قائمة ..

سألت السائق وأنا أسترخى فى مقعدى :

ـ « إلى متى يظل هذا الطريق موحشًا ضيقًا ؟ »

قال وهو يفتح المذياع :

ـ « حوالى ثلاث ساعات يا دكتور .. »

ثلاث ساعات .. هل هو وقت كاف للحصول على مترجم لغة عربية ، فالاتصال بمجموعة أخرى تقطع الطريق علينا ؟ وهذه المرّة سيكون الحصول على المعلومات جذريًا شديد الفعالية ..

بعد تفكير قلت للسائق :

- « عُدْ أدراجك ! »

- « ماذا يا دكتور ؟ »

- « عُدْ إلى (سافارى) حالاً ، وانس ما قلته لك ! »

* * *

بعد ساعة ونصف كنا نرى مبنى (سافارى) الجاثم فى الظلام ..

قلت للسائق :

- « هل تعرف ورشة (ماجوبجا) ؟ الميكانيكى ؟ خذنى إليه ..»

لابد أنه الآن أيقن أنه يقل فى سيارته مجنونًا ، وصار على استعداد لعمل أى شىء مقابل أن يتخلص منى وينام ..

توقفت السيارة أمام الورشة ، وخرج لنا الميكانيكى الأسود ، وذهل حين رآنى .. قلت للسائق ؛ وأنا أفتح غطاء السيارة لأخرج الكيس :

- « عُد إلى (سافارى) الآن ونم .. إياك أن تذكر حرفًا واحدًا عن مغامرة الليلة »

أما عن الوقود المستهلك فلسوف أسوى الأمر مع البروفسور (بارتلييه) ..»

نظر لى فى غباء ، ونظر إلى (ماجوبجا) ، ثم أطلق سيقان سيارته للريح لو صحَ هذا التعبير ..

دخلت الورشة القذرة التى تلوثت أرضيتها بالماء والشحوم ، بينما كانت دهشة (ماجوبجا) لاتقلّ عن دهشة السائق ..

سألته وأنا أنظر حولى :

- « (ماجوبجا) .. هل أنت بخير ؟ »

كانت كليته قد عادت تعمل بكفاءة ، وغادر المستشفى بينما نحن فى (ياوندى) .. لكنه ما زال واهنًا مزعزع القوى ..

قال لى :

- « بخير يا دكتور .. لم أعد أبول دمًا .. ولكن ماذا عن هذه الزيارة المفاجئة ؟ »

- « أريد أن أبيت عندك الليلة .. »

صاح فى دهشة :

- « هذا جميل .. ولكن المكان ليس .... »

- « كما أريد سيارة تقلنى إلى (ياوندى) فى التاسعة صباحًا .. سأدفع التكاليف .. »

- « ولكن ... »

- « سأشرح كل شىء فيما بعد .. »

* * *

كان يبيت فى غرفة صغيرة عند مؤخرة الورشة ، لها باب من الصفيح ، وليس بها من متاع إلا حشية على الأرض ، وإناء لماء الشرب ، وموقد صغير ..

نزعت حذائى وافترشت الأرض .. ولاحظت - فى بهجة - أن بقع الدم كثيرة على الجدار لا يمكن أن يكون مصدرها إلا البقّ ، لكنى قلت لنفسى إن حمامًا سيزيل آثار هذه الليلة تمامًا ..

حكيت له كل شىء ، فلم يصدّق ما يسمع ..

وكان كريم النفس قدَّم لى كل ما لديه كى يسعد بالى ، وهو ما ذكرنى بذلك المشهد فى مسرحية (سيدتى الجميلة) لـ (برناردشو) حين قدمت الفتاة لمدرسها خمسة بنسات أجرًا ، لكنه رحَّب بالمبلغ بشدة .. لماذا ؟ لأنه تلقى أجورًا كثيرة من الأثرياء من قبل ، لكن أحدهم لم يقدّم له (كل ما يملك) .. هذه الفتاة قدمت له (كل ما تملك) وبالتالى كان هذا أعلى أجر حصل عليه فى حياته ..

الجميل فى قصص (شو .. أن .. نسيت !

خ خ خ خ خ !

* * *

فى الرابعة صباحًا سمعنا صوت بوق سيارة ، فخرج (ماجوبجا) يرى ما هناك ، وسمعت محادثة بالفرنسية لم أتبين محتواها ..

بعد نصف ساعة عاد ، وأسند ظهره إلى الجدار كما كان من قبل - كى يفسح لى موضعًا للنوم وقال :

ـ « أعتقد أنهم هـم .. ثمـة مشكلة فـى السيارة لكنها يمكن أن تنتظر حتى الصباح .. سألونى عما إذا كنت قد رأيت سيارة عليها شعار (سافارى) ، لكنى نفيت ذلك ، ونصحتهم بالعودة إلى الوحدة .. »

سألته وأنا بين النوم واليقظة :

ـ « إذن سيعودون فى الصباح ؟ »

ـ « بالتأكـيد .. لقد أنذرتهم من أن هـذا العيـب خطر جدًا ، ولا يمكنهم الابتعاد بالسـيارة أكثر من كيلومتر واحد ، وبعد هذا فإن احتراق السيارة ليس مسئوليتى ! »

ـ « ولسوف تصلحها صباحًا ؟ »

ـ « بالطبع .. ولكن عملية الإصلاح ستلتهم النهار كله ! »

غمغمت بعدما تثاءبت مرتين :

ـ « لا أظن أنهم يعملون بسيارة واحدة .. أراهن أن لديهم أسطولاً .. »

قال ضاحكًا :

ـ « سيفيدك بالتأكيد ألا يخرج الأسطول كلـه فى إثرك .. من المفيد أن تظل بارجته فى الترسانة قيد الإصلاح ! »

ومن جديد تلاشـت الأصـوات والموجودات من حولى ..

* * *

ـ « دكتور .. دكتور ! »

فتحت عينى ، وكـان نـور النهـار يتسلل إلـى الحجرة من مليون ثقب ..

شعرت به يدسَ بعضَ البسكويت فى فمى بيده السمراء ، ثم يستطرد قائلاً :

ـ « إنها التاسعة صباحًا .. ستذهب مع (أولجاجا) إلى (ياونـدى) .. إنـه ينقـل شـحنة من ثـمار البنجر .. »

نهضت ، ورحت أحكَ جسدى كـالقرود .. وكـل عظمة فى موضع مختلف عما نمت به ..

قلت له :

ـ « وهل عاد أصحاب السيارة ؟ »

ـ « طبعًا .. وهم واقفون بالخارج ! لكنى سأخرجك من باب آخر للجراج ! » .

وبعد ثوان كنت أحشر جسدى فى مؤخرة (لورى) عتيق ، امتلأت مؤخرته بثمار البنجر ، وبدا لى أنه من العسير أن تثق بطبيب له هذا المنظر ..

لكن الكيس الثمين كان معى ..

الكيس الذى وضعت فيه العناوين ، ودسسته فى مكان ضيق جوار ردياتور سيارة (جاوا) حين ركبتها أمس .. كنت أعرف أن علىّ أن أخبئ الأوراق وأن أتوقع كمينًا ، وكان علىّ أن أضع فى جيبى شيئًا يجده الباحثون .. لهذا ضحيت بقصائد شعرى التى كتبتها لـ (برنادت) .. لا بأس .. فلم تكن قطعة من الفن الرفيع ..

ولم أنس أن أستردّ الكيس قبل أن يرحل (جاوا) ..

* * *

لايمكن وصف الرحلة إلى (ياوندى) ..

ثمة أشياء لا يمكن وصفها .. السبيل الوحيد لتخيل رحلة فى طريق وعر بسيارة متهالكة وأنت نائم فوق ثمار البنجر ، هو أن تمرّ برحلة فى طريق وعر بسيارة متهالكة وأنت نائم فوق ثمار البنجر ..

ووصلنا إلى (ياوندى) فى الرابعة عصرًا ..

شكرت الرجل الطيب ، ونقدته بعض المال ..

بالطبع كانت ثيابى مزرية ملوثة بكل شىء ممكن ، لهذا لم أستطع دخول فندق (فكتوريا) ، واتصلت بالدكتور (مورجان) ليوافينى حيث كنت ..

جاءنى بعد نصف ساعة ، ونزل من سيارة الأجرة ليهتف فى ذهول :

ـ « رباه ! تبدو كأنما قضيت ليلتك فى معصرة بنجر ! »

ـ « لن يختلف هذا عن الحقيقة كثيرًا .. »

ودون كلمة أخرى دسست الكيس فى يده ..

قال لى وهو يتفحصه :

ـ « حسن .. سننهى الموضوع حالاً ، لكن من العسير أن نقابل من سنقابلهم ، وأنت .... إحم .. اسمح لى .. بهذا المظهر .. ثم إن عليك أن تحكى لى .. »

ـ « بالتأكيد .. اشتر لى ثيابًا أفضل ، وخذنى إلى الفندق .. »

ودسست فى يده الأخرى بعض أوراق العملة ..

* * *

كنت نائمًا كالقتيل فى غرفه بالفندق ، لأن الحمام الساخن جعل أعصابى تذوب تمامًا .. كنت كذلك قد تخلصت من ثيابى كلها فى القمامة ، وتناولت وجبة ساخنة طلبها لى .. ثم ارتديت ثيابًا جديدة نظيفة ..

وصحوت من النوم مذعورًا لأجد أن الساعة التاسعة مساءً ..

هنا انفتح الباب ، ودخل وقد بدا عليه الرضا :

ـ « رباه ! أما زلت نائمًا ؟ يجب أن تستعد حالاً .. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « سنذهب حالاً للقاء قوم شديدى الأهمية .. لقد انتهت مشاكلك يا بنى .. وإنك لبطل .. »

نهضت وغسلت وجهى ، وكنت قد نمت بثيابى ، لذا حاولت أن أصلح من شأنها قدر الإمكان ..

ونزلنا إلى (لوبى) الفندق حيث كان الزحام الشديد ..

اتجه (مورجان) إلى باب الخروج بخطى سريعة ، وأنا أركض خلفه ..

فجأة على الباب اصطدمت برجل يحاول الدخول من الباب الدوّار ..

رفع عينه نحوى ، ورفعت عينى نحوه ..

كان هذا هو (ستيجوود) نفسه !

* * *

وقفنا نتبادل النظرات للحظات ، ثم قلت ضاغطًا على كلماتى :

ـ « عمت مساءً يا مستر (ستيجوود) .. أما زلت تبحث عن مترجم للعربية ؟ »

لم تبدُ عليه الدهشة ، ولم تهتز عضلة فى وجهه وقال :

ـ « بلى .. بلى .. كان يشرفنا أن تقبل هذا الدور يا دكتور (عظيم) .. »

كان كأكثر الأجانب يحذفون (عبد الـ..) من الأسماء العربي المعبّدة .. فيقولون (كريم) و(عظيم) و(رحيم) .. لذا قلت له مصححًا :

ـ « اسمى هو (علاء عبد العظيم) .. وأعتذر عن القيام بالترجمة ، لأننى لا أجيد ترجمة الشعر ! »

تصلب فترة يرمقنى فى ثبات ، ثم هزّ رأسه محييًا :

ـ « سنلتقى كثيرًا يا دكتور (علاء عبد العظيم) .. »

* * *

خاتمة ..

وكما قلت فى الفصل الأول :

هناك أناس قذرون للغاية فى هذا العالم ، لكن هناك كذلك أناسًا نظيفين إلى حدّ لا يصدّق .. الميكانيكى الفقير (ماجوبجا) الذى تخلى لى عن فراشه طواعية ، واشترى لى بعض البسكويت بما فى جيبه من مال شحيح ، والدكتور (مورجان) الذى أعطانى من وقته الكثير ، والذى أعلنها حربًا شعواء على ألاعيب شركات الدواء ..

فى تلك الليلة لم يغمض لى جفن ..

اجتمعت بعدد من كبار الأسماء فى منظمة الصحة العالمية ، الذين وجدوا فى (الكاميرون) ، ثم حكيت قصتى مرارًا لرجال الوزارة ..

وسرعان ما تحركت الإدارات القانونية ، لترفع قضية على الشركة ، وعلى مكتبها العلمى ..

وعبر الأسلاك ووسائل الاتصال انتشر خبر محاولة التلاعب التى قامت بها (كوزمو فارما) من أجل ترويج دواء لا نفع فيه .. ووجد الخبر طريقه إلى بعض الصحف ..

الخلاصة أننى ـ بعون اللّه (تعالى) ـ قد آذيتهم أشدَّ الأذى ..

* * *

وقال (بارتلييه) راضيًا حين عدت إليه بعد ثلاثة أيام :

ـ « جميل .. جميل .. سنرفع قضية على الشركة وتطالبها بمليون دولار تعويضًا عن الأضرار المعنوية والمادية .. إنها قضية شبه مضمونة ، ولسوف تمنحنا التمويل الكافى فى الفترة القادمة .. »

سألته فى براءة :

ـ « هل هذا يعنى انهيار الشركة ؟ »

ضحك حتى ارتجَّ كرشه مرارًا وقال :

ـ « لا تكن طفلاً .. هذه شركة دولية عابرة للقارات .. (كومبرادور) .. إنك لم تفعل سوى أن خدشت ساق العملاق .. فقط لم يعد تسويق عقارهم هذا فى (الكاميرون) ممكنًا .. »

ـ « وستيجوود ؟ »

ـ « هذا رأس كبير ، لكنه ليس حيويًا .. أعتقد أنه سيطير ومعه عصابته ، وأولهم (شوماخر) طبعًا .. لا بد من وجوه جديدة نضرة فى (الكاميرون) .. »

ثم عقد أنامله وقال :

ـ « يمكن أن تطلب أية مكافأة منى اليوم .. فأنا ـ ويا للعجب ـ راضٍ عنك »

قلت وأنا أقطع بعينى الصحراء الإفريقية والوادى المتصدِّع وكل شىء :

ـ « أريد إجازة أرى فيها أمى .. »

ـ « لك هـذا .. بعـد يومين حين يعـود صديقـك التونسى .. »

هنا تدخل (باركـر) الجـالس ـ كغـراب البين ـ جوار المدير :

ـ « لقد انتهى وقت التدليل يا دكتور ، وحان وقت العودة إلى العمل الحقيقى .. أرجو ألا تكون قد نسـيت التعامل مع الحـروق ، بعدما انهمكـت فى تجـارب الملاريا .. إن عنبر الحروق بحاجـة إليـك هذين اليومين ! »

نهضت مستسلمًا ، فقال لى (بارتلييه) :

ـ « ولا تنس أنك نملة فى مسـتعمرة .. النملـة لا رأى لها ولا شخصية مستقلة .. وإلا كـان الطـرد جزاءها .. »

قلت وأنا أغادر المكتب :

ـ « ليكن .. نملة .. نملة .. هذا أفضل من أن أكون (ستيجوود) فى هذه الأيام بالذات .. »

* * *

وفى (تايـلاند) ؛ لاحـظ الدكتور (هاو ـ بيم) أن مرضى المجموعـة التى لا تتعاطـى العقـار الجديد يبولـون دمًـا .. كمـا أن مرضـى المجموعـة الأولـى يشفون بسرعة لا تصدق ..

نقل وساوسه إلى مدير قسم الأوبئـة ، فهزّ هذا رأسه وقال :

ـ « إن هؤلاء القوم فى (كوزمو فارما) يعرفون ما يفعلون .. إنها من الشركات المحترمـة المعدودة الباقية على ظهر الأرض .. »

هل تتدخل منظمة الصحة العالمية هناك ؟

هذا للأسف موضوع بعيد جدًا عن نطـاق عملنـا المحدود فى (سافارى) .

د. علاء عبد العظيم
أنجا واندیری

[تمت بحمد الله]

* * *

روايات مصرية للجيب

سافاري

دواء يقتل

ثمة أدوية نادرة .. ثمة أدوية باهظة الثمن .. ثمة أدوية تؤذى .. ثمة أدوية عديمة النفع .. ثمة أدوية عديمة الضرر .. لكننى اليوم أحكى لكم قصة دواء يقتل ..

إن القصة تبدأ كما يلى ....



د. أحمد خالد توفيق

مطابع

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
عام الأفاعى